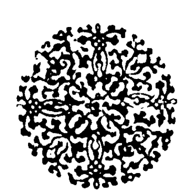
المدخل إلى
القيم الإسلامية

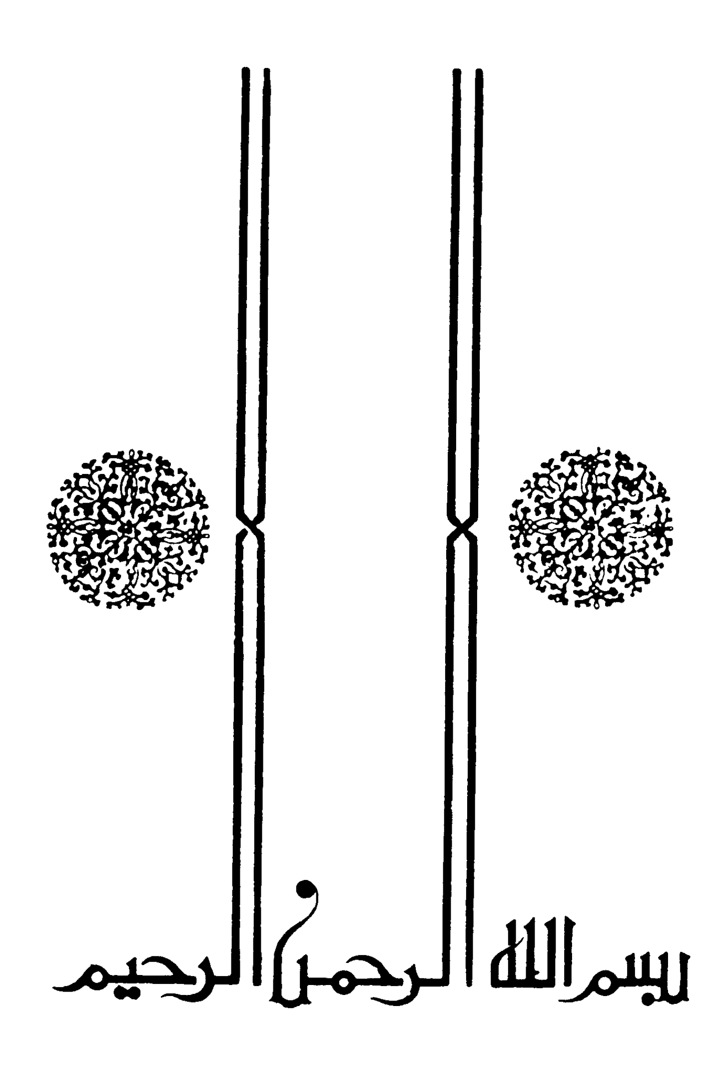
بقلم
الدكتور جابر قميحة
كلية الألسن - جامعة عين شمس

الناشرون
دار الكتب الاسلامية
دار الكتاب المصرى القاهرة
دار الكتاب اللبنانى بيروت



دار الكتاب المصرى
القاهرة ج.م.ع
٣٢ شارع قصر النيل – ص.ب ١٥٦
ت٧٤٢١٦٨/٧٥٤٣٠١ - برقيا : (كتامصر)
TELEX :21581
ATT:134 K.T.M CAIRO

دار الكتاب اللبنانى
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ – برقيا : كتالبان
تليفونات : ٢٥١٢٩٤ /٢٣٧٥٣٧
TELEX :K.T.L 22865 LE
BEIRUT


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الاولى ١٤٠٤هـ — ١٩٨٤م

الإهداء

.. إلى الـذيـن قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا ، وعَلَى الحق أَقَامُوا ، فمنهم من قَضَى نحبَه ، ومنْهم مَنْ ينتظر، وما بدَّلوا تَبْدِيلاً ...

... إليهم ــ بصدقٍ وحق ــ أُهدي هذه الكلمات .

تقـــديـــم

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله سبحانه وتعالى ، وأصلى وأسلم على نبيه محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء والمرسلين الذى جعله الله على خلق عظيم ، وبعثه للبشرية رحمة مهداه .. وبعد :

أقدم للقارىء العربى بخاصة والقارىء المسلم بعامة هذا البحث المتواضع الذى جعلت عنوانه ـ (المدخل إلى القيم الإسلامية).والعنوان تعبير دقيق عن محتوى البحث : فهو مجرد معالم على طريق الوصول إلى القيم الإسلامية والتعرف على السبل المؤدية إليها ، وقد قسمت البحث الى أربعة فصول :

الفصل الأول : بعنوان : (مع التاريخ ورصيد الفطرة) وكان دراسة تاريخية اجتماعية موجزة لأخلاقيات المجتمع الجاهلى بمفهومه الواسع : الفضائل منها والرذائل ، وموقف الإسلام من هذه الأخلاقيات .

والفصل الثانى : خصائص القيم الإسلامية : أبنت فيه عن سمات الأخلاق الإسلامية بكل أنواعها وألوانها وأثر هذه السمات فى بقاء هذه الأخلاق وخلودها .

والفصل الثالث : محمد القيم والمنهج : عرضت فيه صورة نفسية أخلاقية لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وكيف كان مثلا أعلى للمسلمين فى قوله وفعله ، كما بينت فى الشق الثانى من الفصل منهجه عليه السلام ـ فى غرس القيم الإنسانية فى نفوس أصحابه ، وفصلت إلى حد ما فى ملامح هذا المنهج .

أما الفصل الرابع : « شبهات على الطريق » فجاء خاتمة طبيعية لهذا البحث . عرضت فيه للشبهات التى يثيرها الشاكون والمشككون حول الدعوة إلى « إسلامية القيم » وحاولت ـ فى إيجاز ـ أن أفند هذه الشبهات وأنقض تلك الشكوك .

وقد أخذت نفسي بعدة أمور تبين عن المنهج الذى سلكته فى هذا البحث . ومن أهمها :

١ـــ الاعتماد بصورة أساسية على القرآن والسنة فى استخلاص الحقائق والعناصر التى تتعلق بالقيم والمجتمع والشخصيات . وكان اعتمادى الأساسى بالنسبة للسنة على صحيح مسلم والبخارى بصفتها أصح الصحاح وأدقها .

٢ـــ البعد عن الخلافات التى وردت فى كتب الفقه والتصوف والكلام والأخلاق والفلسفة فيما يتعلق بالأخلاق الإسلامية وشخصية الرسول ، لأنى اعتبرت البحث مجرد تقديم ومدخل إلى القيم الإسلامية .

٣ـــ الإكثار من الشواهد القرآنية وشواهد السنة الشريفة فى بيان ماعرضناه من أفكار وماسقناه من حقائق .

٤ـــ محاولة ربط هذه القيم بالواقع الإنسانى والأخلاقى والقانونى المعاصر فى إجمال خلوصا إلى تبين طوابع العظمة فى القيم الأخلاقية الإسلامية .

٥ـــ ربط النموذج النظرى بالنموذج العملى ، أوبتعبير آخر الكشف عن مكان هذه القيم فى شخصيات الرعيل الأول وعلى رأسهم أستاذهم .. أستاذ الحياة محمد بن عبدالله عليه السلام .

ولا أزعم أننى أتيت بما لم يأت به الأوائل ، فإن ضيق الوقت وكثرة المشاغل حالت دون ماكنت أرجو من أن يكون البحث عن « القيم الإسلامية » لاعن « مدخل » موصل إليها.وذلك كان يقتضينى إضافة عدة فصول أخرى .. من أهمها (صورة القيم الإسلامية) و يدور حول هذه القيم تفصيلا فى الحرب والسلم .. فى مجال الفرد والأسرة والمجتمع ، والطبيعة الأخلاقية لهذه القيم قيمة . الخ . وإذا فاتنى أن أقوم بذلك فى زحمة العمل وضيق الوقت فإننى آمل أن يتحقق الأمل فى المستقبل القريب ببحث لاحق بعنوان القيم الإسلامية : صورتها وأبعادها ومجالاتها . (دراسة مقارنة) ..

والحمد لله فى الأول والآخر .. ،

٢٦ من شوال ١٤٠٣

٥ من أغسطس ١٩٨٣

دكتور جابر قميحة
الدقى ٣٣ شارع هارون ـــ القاهرة

الفصل الأول

مع التاريخ
ورصيد الفطرة

ليس هناك أصعب من البحث فى « القيم الإسلامية » لا لغموض فى الموضوع أوانغلاق فى مناحيه ، ولكن لا تساعه وترامى أطرافه ورحابة مراميه : فالبحث فى القيم الإسلامية يعنى البحث فى الإسلام كله ، أليس الإسلام هودين القيم الإنسانية والأخلاق النبيلة ؟ ألم يقل الله سبحانه وتعالى ،

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (١)

ألم يقل رسول الإسلام عليه السلام « **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** »

ألم يصف القرآن الكريم نبى الإسلام بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢)

ألم يكن أول مانزل من القرآن يعد فى ذاته دعوة لقيمة إنسانية عليا هى القراءة وتلقى العلم الهادف لبناء الإنسانية .. لا العلم المدمر القاتل ؟

إقرأ .. باسم من ؟ باسم ربك ؟ والربوبية عطف وتعاطف ورحمة ، لذا نقول رب البيت ورب الأسرة .

ومن ربى ؟ إنه الذى خلق ... نعم الذى بنى وخلق ... إنه التلميح البعيد ... بل القريب ... القريب جدا إلى أن القراءة والعلم يجب أن يرتبطا بهدف إنسانى نبيل هو « البناء والتشييد » لا الاستعلاء الكاذب ... ولا الإهلاك والتخريب والتدمير . « فالمعرفة ينبغى أن تكون أساس تركيب الإنسان ، وأول واجب علينا أن نجعل هذه المعرفة نافعة » (٣)

والدعوة الى القراءة هى دعوة واضحة الى تلقى العلم ... وأكاد أرى أنها دعوة إلى ماهو أوسع وأرحب ... إنها دعوة إلى « التحرك الديناميكى الناشط للبناء والإبداع استجابة للداعى الذى خلق « خلق الإنسان من علق ».

وكانت « العلمية الحركية الناشطة » من أعظم الأسس التى اعتمدت عليها القيم الإنسانية فى الإسلام . وهذه الدعوة تمثل قاعدة إيمانية قوية عريضة « .. فكل أمر .. كل حركة .. كل خطوة .. كل عمل باسم الله .. وعلى اسم الله .. باسم الله نبدأ .. وباسم الله نسير ، وإلى الله نتجه ، وإليه المصير . والله هو الذى خلق وهو الذى علّم ، فمنه البدء والنشأة ، ومنه التعليم والمعرفة ، والإنسان يتعلم مايتعلم ، و يعْلَمَ مايعْلَمَ ، فمصدر هذا كله هو الله الذى خلق والذى علّم .. « علم الإنسان مالم يعلم » .

---

(١) الأسراء ٩

(٢) القلـــم ٤

(٣) الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ٣٢٠

وهذه الحقيقة القرآنية الأولى التى تلقاها قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فى اللحظة الأولى هى التى ظلت تصرف شعوره وتصرف لسانه ، وتصرف عمله واتجاهه بعد ذلك طيلة حياته بوصفها قاعدة الإيمان الأولى (١)

وربانية المنبع القيمى لا تقيد حركة المسلم ولا تحد من انطلاقه الفكرى ، ولكنها ترسم له الطريق ، وتضع له المعالم حتى لا يضل ولا يطغى ، ومن معالم هذا الطريق خصوصا فى مجال الفكر والبحث الحرص على التبين قبل الحكم ، وتحرى الصدق فى الرواية والصدق فى التثبت والصدق فى التفسير والصدق فى التكييف مع توافر حسن النية فى كل مسلك من المسالك ، وكل مرحلة من المراحل . حتى إذا ما اجتهد الباحث وأصاب كان له أجران ، وإذا ما اجتهد وأخطأ كان له أجر واحد .

وقد أرسى الإسلام قواعد هذا المنهج العلمى الأخلاقى فى نفوس المسلمين وحياتهم . وقد وقفت طويلا أمام حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. حديث قليل الكلمات عظيم الدلالات : جاء فى الأثر أن رجلا حضر إليه وعلى وجهه أمارات الغضب ، وقد أمسك بتلابيب رجل آخر وهو يقول : يارسول الله : إن هذا الرجل سرق منى كذا وكذا .. فرد عليه النبى قائلا « **لا تقل سرق ولكن قل أخذ** » .

وهذه الكلمات المشرقة تكشف فى بساطة ووضوح المنهج الأخلاقى فى جميع مناحى الحياة :

فمن معطياتها قاعدة قانونية خلاصتها : ضرورة التثبت قبل الإدانة : فالمتهم برىء إلى أن تثبت إدانته . ويمتد العطاء الذى تمنحه هذه الكلمات حتى يصبح « منهجا علميا » من ملامحه التأنى والتعمق والتمحيص والترفع عن مستوى الشبهات والبعد عما لا يطمئن إليه العقل والقلب والضمير .

واستقاء من هذا المنهل العذب حرص أسلافنا فى كتابة التاريخ وتدوين الحديث النبوى على « العنعنة » ... حدثنا فلان .. عن فلان .. الخ . وظهرت كتب الجرح والتعديل ، وهى الكتب التى تبحث فى أخلاق الرواة والمحدثين وتضع معايير الأخذ والرفض ، فتجيز من يطمأن إلى دينه وأخلاقه ، وترفض من يشك فى يقينه أو عقيدته أو سلوكه أو قدرة حافظته .

وقد تأخذ الحيطة والأناة والتثبت العلمى عند بعض السلف صورة تدعو إلى الدهشة والعجب والإعجاب .. فقد روى أن أحمد بن حنبل رحل أسابيع أو أشهرا إلى رجل سمع

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ٦/ ٣٩٣٩

بعلمه وحفظه ، ليأخذ عنه حديثا ، وتجشم فى سبيل الوصول إليه من المشاق مايعجز عنه الوصف ، فلما وصل إليه رآه يجمع أطراف ثوبه و يدعو إليه بغلته موهما إياها أن فى حجره تبنا، وحجره فارغ ، فتحرج ابن حنبل أن يروى عنه حديثا واحدا لأنه كذب على بغلته « ومن يكذب على بغلته لايؤمن على حديث رسول الله »

فهذا مثل واحد يبرز لنا الطابع الأخلاقى الربانى فى البحث عن حقائق العلم والدين (١)

وربانية « المنبع القيمى » هنا ، أوبتعبير آخر : ربط القيمة الإنسانية العلمية الحركية هنا بالمنبع العلوى وهو الله سبحانه وتعالى يكسب القيمة « سموا » من ناحية ويمنحها قوة ورسوخا من ناحية أخرى على ماسنعرف بالتفصيل ان شاء الله فى ثنايا هذا البحث وتضاعيفه .

وبين ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ و ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (٢)

... بين هاتين الآيتين .. وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاما هى مسيرة النبوة المحمدية الوضيئة . قرابة ربع قرن من الوحى والنور والهداية والتوجيه السديد فى شتى المجالات .. قرابة ربع قرن من الاتصال الحى النابض بين الأرض والسماء تكوّن رصيد ضخم من القيم الإنسانية ... اعتنقتها أمة فخرجت بها من الظلمات إلى النور ... ومن الضعف إلى القوة .. ومن الذلة إلى العزة .

لقد أصبحت « الشخصية الإسلامية » ذات نسج جديد حى قوى متين وصفه لنجاشى الحبشة جعفر بن أبى طالب حين هاجر المسلمون إليها فارين بدينهم : « أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، و يأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ماجاء به من الله ، فعبدنا الله

---

(١) انظر فى أخلاقية المنهج العلمى الإسلامى مقالا لنا فى مجلة الرائد الكويتية ١٣ يونيو ١٩٧٤ ومقالا آخر فى صحيفة الأخبار القاهرية فى ١٩٨١/٢/٢٥ .

(٢) المائدة ٣ وهى آخر مانزل من القرآن على أرجح الأقوال .

وحده ، ولم نشرك به شيئا ، وحرمنا ماحرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل من الخبائث .. فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا و بين ديننا .. خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألانُظلم عندك » (١) .

عبادة الأوثان . أكل الميتة . إتيان الفواحش . قطع الأرحام . الإساءة إلى الجار . منطق البغى والقوة . كانت هذه الملامح تمثل قائمة القيم الجاهلية . وهى ـ كما هوواضح ـ قائمة مختلة منحرفة ، ألم تر إلى هؤلاء الجاهليين وهم يفخرون « بفضيلة » البغى والعُدْوَان . يقول عمرو بن كلثوم :

بُغَاةً ظالمين وما ظُلِمْنا ... ولكنا سَنَبْدأُ ظَالِمِينَا (٢)

وقد يمتد الظلم إلى أقرب الناس على طريقة :

وأحْيَاناً على بَكْرٍ أَخِينَا ... إذَا مَالَمْ نَجِد إلاَّأخَانَا

وتسربت رواسب من هذه المفاهيم الغالطة إلى نفوس بعض المسلمين فرددتها فى ساعة من ساعات الضعف البشرى والملاحاة العنيفة : فتميم بن مقبل يغضب غضبا شديدا لأن النجاشى الشاعر هجاه ... نعم هجاه وهجا قبيلته بقوله :

قبيلته لايَغْدُرُون بذمة ... ولايظلمون الناسَ حبَّة خَرْدَلِ
ولا يردون الماء إلاَّ عشيَّةً ... إذا صَدَرَ الورَّادُ عنْ كلِّ منْهَل
تعافُ الكلابُ الضاريات لحومَهُمْ ... وتأكل من عَوْف بن كَعْبِ بن نَهْشَلِ
وماسُمى العجلان إلاّ لقولهم ... خُذِ القعبَ واحلب أيُّها العبْدُ واعجلِ

و ينطلق تميم مستعدِيًا عمر بن الخطاب على النجاشى ليؤدبه على هذا الهجاء و يأتى رد عمر « تصحيحا » لمفاهيم جاهلية غالطة : يعلق عمر رضى الله عنه ــ على البيت الأول

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٣٢٧/١

(٢) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٥١

قائلا : « ليتني من هؤلاء » وعلى الثاني يقول : « ذلك أصفى للماء وأقل للزحام » وعلى الثالث بقوله : « كفى ضياعا بمن تأكل الكلاب لحمه » ، و يعلق على الرابع بقوله : « خير القوم أنفعهم لأهله » (١) .

●●●●●●

وكانت لغة الدم ـ كما ألمحنا ـ هي اللغة المنطوقة واللغة المسموعة في الجزيرة العربية ، وكانت الحروب تشتعل لأتفه الأسباب ، من أجل ناقة .. كحرب البسوس ، أومن أجل فرس كحرب داحس والغبراء (٢) ، حتى أرباب الأديان السماوية في الجزيرة العربية كانت لغة الدم هي أرفع اللغات صوتا عندهم : يقول الفخر الرازي في تفسيره لسورة الأخدود « وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى فدعاهم فأجابوه فصار إليهم ذو نواس اليهودي بجنود من حمير ، فخيرهم بين النار واليهودية .. فأبوا ، فأحرق منهم اثني عشر ألفا في الأخاديد وقيل سبعين ألفا ، وذكر أن طول الأخدود أربعون ذراعا ، وعرضه اثنا عشر ذراعا » (٣)

ومما ينقله التاريخ عن المجتمع الجاهلي وسيادة منطق القوة فيه أنه إذا قابل الجاهلي آخر معه ظعينة وليس من قبيلته ، ولا من قبيلة لها معها حلف .. تقاتلا ، فإذا قهر صاحب الظعينة أخذت منه سبية فاستحلها بذلك الغالب ، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار في مدة حياتهم ، ولذلك .. كان من مفاخر الرجل منهم أن تكون أمه حرة نسيبة لا سبية جليبة (٤)

●●●●●

وكانت ذاتية الفرد ذائبة في « جماعية » القبيلة ، فهو تابع لها ذائب فيها في الشر والخير على حد قول الشاعر :

وما أنا إلا من غُزية إن غَوَت   غَويت وإن ترشد غزيةُ أرشدِ

---

(١) انظر : ابن رشيق : العمدة ١/٥٢ ، وانظر كذلك لعلي وناجي الطنطاوي : سيرة عمر بن الخطاب ٥٠٦

(٢) انظر الأغاني ١٦/٦٤٧٨

(٣) الفخر الرازي : مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير ٨/٣٦٨
وانظر كذلك سيرة ابن هشام ١/٣٥ .

(٤) محمد الخضر : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ١/٢٠

وحرصا على مكان القبيلة وهيبتها فى مجتمع الدم والعدوان والقوة كانت القبيلة تنصر من ينتسب إليها أويحالفها ظالما كان أومظلوما ، فإذا لم تفعل ذلك لحقتها المسبة والمعرة . يقول قريط بن أنيف العنبرى :

لو كنتُ من مازنٍ لم تَستَبِح إبلِى ... بنو اللقيطةِ من ذهل بن شيبانا
إذنْ لقامَ بنصرى معشر خُشُنٌ ... عند الحفيظةِ إنْ ذُولَوثةٍ لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذَيْهِ لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا
لايسألون أخاهُمْ حين يندُبَهُم ... فى النائباتِ على ماقَالَ بُرْهانَا
لكن قومى وإنْ كانُوا ذَوى عَدَدٍ ... ليسُوا من الشَّرفى شىء وإن هانا
يجزون مِنْ ظُلم أهلِ الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهلِ السوءِ إحْسَانَا
كأنَّ ربَّك لم يخلقْ لخشيتِهِ ... سواهم مِنْ جميع الناسِ إنْسانَا
فَلَيْتَ لى بِهم قوماً إذا ركبُوا ... شَنُّوا الإغارةَ فُرسَاناً ورُكباناً (١)

وبجانب الغدر ومنطق القوة والدم والحروب الدائمة والعدوان الغاشم كانت هناك أمراض اجتماعية متعددة وعادات قبيحة كثيرة ، منها وأد البنات ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى التُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ ﴾ (٢)

وكان هناك أكل السّحْت ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، وعبادة الأصنام وعبادة الملائكة والجن وإنكار البعث ، والإيمان بالأزلام ، ولعبهم الميسر ، وحرصهم على الخمر ، وتفننهم فى شربها ، وافتخارهم بالحرص عليها ومعاقرتها ، وإتلاف المال من أجلها على حد قول عنترة :

---

(١) شواهد الكشاف ــ التفسير ٤/٣٤٢ وانظر الخضرى السابق ٢٢

(٢) النحل ٥٨ ، ٥٩ : ربما كانت كراهية البنت عند بعض العرب مظهرا من مظاهر التأثر بالديانة الموسوية القديمة إذ كانت الأسرة تتلقى ولادة البنت بغير ارتياح ولاعطف ، بينما كانت ولادة الذكر موجبة للفخار ومعتبرة بركة علوية ..
أما الأم ــ فبنص التوراة ــ تظل نجسة خمسة عشر يوما إذا وضعت بنتا ، وعليها أن تقضى سبعين يوما فى تطهير نفسها .
أما اذا وضعت ولدا ذكرا فمدة النجاسة ثمانية أيام ، ومدة التطهير خمسة وثلاثون يوما .
(راجع كتاب مركز المرأة ص ٣٦ ، ٣٧ ، راجع كذلك : العهد القديم : سفر الملوك الأول وسفر التكوين وسفر الأحبار) .

واذا شــربــتُ فــإنَّــنــي مــسـتـهـلـكٌ   مَـالِـي وعِـرْضـي وافـرٌلَـمْ يُـثْـلَـمِ (١)

و بعضهم كان يسرف فى ذلك كل الإسراف ، يتلف كل ماله على خمره ولذته حتى تتبرأ منه القبيلة كما يقول طرفه :

ومــازال تَـشْـرَابـى الخـمـورَ ولـذَّتـى   و بـيـعـى وإنـفـاقـى طَرِيفِى ومُـتْـلَدِى
إلى أن تَـحَـامَـتْـنِـى الـعـشـيرةُ كـلُّـهـا   وأفـردتُ إفـرادَ الـبـعـيـرِ المـعـبَّـدِ(٢)

ثم استهانوا بالحياة لكثرة حروبهم وتوقعهم الفجيعة فى أنفسهم وأحبائهم ، فانكبوا على لذَّاتِ الحياة ينهلون منها و يعلون ، وهذه خلة مازالت إلى الحرب قريبة ، وكانت فى كل حرب حتى قالوا أن أنهار الدماء وأنهار الخمر كانت تجرى فى الثورة الفرنسية . ثم هم بين غالب ومغلوب : غالب سَبَى وغنم وظفر ، فيعب الخمر بهجة ونشوة ومجلبة للزهو المضاعف ، ومغلوب كُسر وسلب ماله وأسرت نساؤه ورجاله وفجع فى أحبائه فأظلمت حياته ، وضاق بالدنيا ، وضاقت به ، فيلوذ بالخمر يتناسى بها همه ملاوة من الزمن (٣)

●●●●●

ولكننا ــ حرصا على علمية البحث ــ يجب ان نقف قليلا لنحدد طبيعة الأمراض الاجتماعية والخلقية التى أصيب بها المجتمع الجاهلى . وهذه الأمراض فى مجموعها يمكن تصنيفها إلى نوعين :

الأول : عام شائع يضم المجتمع كله أوأغلبه حتى أصبح جزءا من طبيعته مثل : العدوان والاحتكام إلى القوة فى حل المنازعات ، وعبادة الأصنام والإيمان بالأزلام وشرب الخمر .

الثانى : خاص بطبقة أوفئة معينة من الناس مثل : وأد البنات ، فلم يكن مرضا شائعا فى جميع العرب ، بل كان فى بعض بطون من تميم وأسد (٤) وكانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية ، وتارة خوفا من الفقر والفاقه ولزوم النفقة . (٥)

---

(١) التبريزى : شرح القصائد العشر ٢٠٢

(٢) السابق ٨٦ .

(٣) الحوفى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى ٣٥٠

(٤) الخضرى : السابق ٢١/١

(٥) الفخر الرازى ٣٢٢/٥

وكـان هـنـاك من أشراف تميم قبل الإسلام من كره الوأد وعابه ، وكان يشترى البنات ممن يريدون وأدهن بنوق تذهب عنهم الفقر والخوف منه ، وعرف ذلك عن خالد بن صَعْصَعَة جد الفرزدق . (١)

ولـو أن الوأد كان عاما فى العرب لقلت النساء قلة لاتكفل للرجال تعدد الزوجات ، ولو أنـه كـان عـامـا لـتـبـاهـى بـه الـشـعـراء ، ولَـهَـجَوْا الذين لايئدون ، لأن الوأد فضيلة وتركه رذيلة . (٢)

●●●●●

ومـا يـقـال عـن وأد الـبـنـات يـقال كذلك عن الزنى ، فالحرائر فى الجاهلية حافظن على عـفـتهـن وسـمـعتهـن . ولم يـعـرف العرب إلا زنى الإماء ، فكان بعض الرجال يقتنى الإماء ، و يـكـرهـهـن على البغاء ليجلبن له مالا ، أوليلدن له أولادا يبيعهم ، أوليكرم ضيفه . فمثلا : كـان عـبـدالله بـن جـدعـان نـخّـاسا ، له ست جوار يزنين ، و يبيع أولادهن . وكان عبدالله ابـن أبـى بـن سـلـول يجبر جـار يـتـه أوجـوار يـه الـست على البغاء لأنه كان يبيع أولادهن ، و يـتـقـاضـى منهن ضرائب ، وكان إذا نزل به ضيف أرسل إليه جارية ليباشرها تكريما له ، فـشـكـت إحـداهـن أواثـنـتـان منهـن إلى الـنـبـى صـلـى الله عـليه وسلم ــ فنزل قوله تعالى ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٣)

وكـن يمـيـزن بـيوتهن بأن ينصبن عليها رايات لتدل إليهن من يريدهن .. وقيل إنهن كن تسعا أواكثر معروفات ... وهن جميعا من سواقط الإماء مثل سريقة جارية زمعة بن الأسود . وأم عليط جارية صفوان بن أمية ، وحنة القبطية جارية العاص بن وائل (٤)

وهى حقيقة يؤيدها الواقع التاريخى ، ويمكن الاستدلال عليها كذلك بما يأتى :

١ ــ لجـوء بـعـض الـعـرب ــ كما أشرنا سابقا ــ إلى وأد بناتهم خوف الفاقة والفقر وعار الـسـبـى . فـلـو كـان زنـى الحرائر معروفا أومستساغا كزنى الإماء لكانت البنات مورد رزق طيب ، ولكانت البنت موضع حب واعتزاز عند الذين عرف عنهم الوأد واشتهروا به .

---

(١) الخضرى السابق نفس الصفحة

(٢) الحوفى : المرأة فى الشعر الجاهلى ٢٣٨

(٣) النور ٣٣ ــ فتياتكم = إماءكم . البغاء : الزنى ــ تحصنا : تعففا وتصوناعنه .

(٤) راجع الحوفى : المرأة فى الشعر الجاهلى ٣٩٩

٢ ــ ما حدث يوم بيعة النساء ، فقد دخل النبى عليه السلام مكة فاتحا وأخذ بيعة الرجال ، ونزل قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

و بعد بيعة الرجال جلس النبى الى الصفا ، وأخذ فى بيعة النساء وفيهن هند بنت عتبة ــ على ألا يشركن ... ولا يسرقن ... ولا يزنين ... وهنا قالت هند : أوتزنى الحرة ؟ وفى رواية : مازنت منهن امرأة قط (٢)

فهذا الاستفهام الاستنكارى ، وهذا النفى القاطع فى الرواية الثانية يدل على أن مجتمع الجاهلية بعامة ، ومجتمع مكة بصفة خاصة لم يعرف زنى الحرائر، ولم يقره على كثرة انحرافات المجتمع كما بينا من قبل . وحتى زنى الإماء كان محصورا فى أماكن محددة ، وعدد الإماء البغايا لا يتجاوز التسع كما ذكر التاريخ ، وهو عدد قليل جدا بالنسبة لمجتمع مكة التى يقصدها عشرات الألوف فى موسم الحج بخاصة . فالزنى إذن لم يصل فى المجتمع الجاهلى إلى درجة الآفة الاجتماعية الشائعة .

ولكن هل خفيت هذه الحقيقة على النبى عليه الصلاة والسلام ؟ هل غاب عن خاطره أن الحرائر لايزنين ؟

نحن لانشك أنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ كان يدرك هذه الحقيقة تماما،ولكن يبقى سؤال آخر يتردد فى الخاطر وهو: كيف يطلب إذن من النساء الحرائر تجنب فاحشة لايقعن فيها ؟

إن واحدا من المؤرخين أوالمفسرين ــ على ما أعلم ــ لم يحاول أن يجيب عن هذا السؤال أويقطع فيه برأى . فبماذا نعلل نهى النبى ــ عليه السلام ــ للحرائر عن فاحشة ماكان لها وجود بينهن ؟ إن التعليل السليم لايكاد يخرج عن واحد من اثنين :

١ ــ أن يكون المقصود بذلك الإماء مع أن الحديث موجه إلى الحرائر تأدبا منه عليه السلام ، وكسنّته فى اتباع طريقة « التوجيه غير المباشر » حتى لا يوقع المخطىء فى حرج

---

(١) المتحنة ١٢
(٢) الزمخشرى : الكشاف ٤/ ٩٥

المواجهة . وقد كان من أدبه عليه السلام أنه كان إذا رأى مخطئا مخالفا يقول « **مابال أقوام يفعلون كذا .. وكذا** » .. حرصا على مشاعر المخطىء أن تخدش ، وحتى لايكون فى ذلك فضح له أمام الناس وتشهير به بينهم (١)

٢ ـ أن مضمون هذه البيعة جزء من التشريع الإسلامى فى باب المحرمات.ومعروف أن التشريعات ـ حتى الوضعى منها وإن ارتبطت بأسباب خاصة ـ تأخذ صفة التعميم بصرف النظر عن الحدث الأصلى الموجب للعقوبة من ناحية ندرة حدوثه أوكثرته مستقبلا . وخاصة ان الإسلام ليس دينا محليا أودينا مرحليا ، ولكنه جاء لكل زمان ومكان.فما يكون قليلا نادرا اليوم قد يكون كثيرا غامرا غدا ، وما يكون قليلا نادرا فى هذه البيئة قد يكون شائعا فى مجتمع آخر ، وهذه التعميمية التشريعية هى مانص عليه الأصوليون بقولهم « العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب » فإذا ورد نص شرعى عام وجب العمل بعمومه بقطع النظر عن كل اعتبار آخر ، فلانظر للسبب الذى ورد من أجل النص ، ولاللواقعة التى جاء النص بسببها . (٢)

فالنهى عن الزنى يلزم نساء مكة وغيرهن ، و يلزم الحرائر والإماء ، و يلزم النساء فى هذا العصر والنساء فى غيره ، بل يلزم الرجال أيضا مادام النهى لايدل على تخصيص النساء بذلك واستقلالهن به .

وتحريم مالم يكن سائدا فى جزيرة العرب ومالم يكن قاعدة لها مكانها وثبوتها يدل فى ذاته على « عالمية الإسلام » مكانيا من ناحية ، وعلى « خلود الإسلام » زمانيا من ناحية أخرى : فالزنى فى وقتنا الحاضر وخاصة فى الغرب أصبح مظهرا من مظاهر المدنية ، أوعلى الأقل : لم يعد من الأفعال التى تشين مقترفها وتصمه بالإثم والعار والخروج على القانون والآداب .

وحين أشرق نور الاسلام كان الزنى منتشرا انتشارا واسعا فى كثير من المناطق والدول المحيطة بجزيرة العرب : فهيرودوتس المؤرخ يروى أن كل امرأة طلع عليها النور فى مدينة بابل محتوم عليها أن تذهب مرة فى العمر ناحية هيكل الزهرة (مليتا) فتواقع أجنبيا ، ولايسوغ للمرأة بعد أن تكون اتخذت لها موضعا هناك أن تعود إلى دارها من قبل أن يقذفها أحد أولئك الأجانب بحفنة من المال يلقى بها على ركبتيها ثم يستدرجها إلى خارج الهيكل إلى حيث تكون له ، وأن الأجنبى حين يلقى إليها بالمال يقول لها « أسأل الربة مليتا أن تكون عنك راضية » ولم يكن يسوغ للمرأة أن ترفض المال المبذول لها قل أوكثر .. لأنه كان يعتبر

---

(١) انظر الشفا للقاضى عياض ١/ ٢٤٢ والبخارى ٨/ ٣١ (كتاب الأدب) باب من لم يواجه الناس بالعتاب

(٢) محمد زكريا البرديسى/ أصول الفقه ٤١٠

مـالامقـدسا ، ثم كـان يجب على المرأة أن تتبع أول رجل رمى إليها بالجعالة غير رادة أوممتهنة إنسانا كائنا من كان . (١)

وكانت أخلاقيات الدول المحيطة بالجزيرة العربية أشد انحطاطا ، وأضرى سقوطا : ففى الدول الرومية الشرقية ، وعلى كثرة مصائب الرعية ازدادت الإتاوات ، وتضاعفت الضرائب حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومة ، ويمقتونها مقتا شديدا ، و يفضلون عليها كل حكومات أجنبية .. وقد حدث اضطرابات عظيمة وثورات ، وقد هلك عام ٥٣٢ فى الاضطرابات ثلاثون ألف شخص فى العاصمة .

وعلى شدة الحاجة إلى الاقتصاد فى الحياة أسرف الناس فيه ، و وصلوا فى التبذل إلى أحط الدرجات ، وأصبح الهم الوحيد لهم اكتساب المال من أى وجه ثم إنفاقه فى التظرف والترف وإرضاء الشهوات .

ذابت أسس الفضيلة ، وانهارت دعائم الأخلاق ، حتى أصبح الناس يفضلون حياة العزوبة على حياة الزوجية ليقضوا مآربهم فى حرية ، وكان العدل كما يقول (سيلى) يباع و يساوم مثل السلع وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع .

يقول جيبون « فى أواخر القرن السادس وصلت الدولة فى ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة ، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أمم العالم فى حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها إلا الجذع الذى لايزداد كل يوم إلا ذبولا . (٢)

أما فارس التى شاطرت الروم فى حكم العالم المتمدن فكانت الحقل القديم لنشاط كبار الهدامين الذين عرفهم العالم ، كان أساس الأخلاق متزعزعا مضطربا منذ عهد عريق فى القدم ، ولم تزل المحرمات النسبية التى تواضعت على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة .. موضع خلاف ونقاش ، حتى أن يزدجرد الثانى الذى حكم فى أوسط القرن الخامس الميلادى تزوج بنته ثم قتلها ، وأن بهرام جوبين الذى تملك فى القرن السادس كان متزوجا بأخته .. ولم يكن هذا الزواج يعد معصية عند الإيرانيين ، بل كان عملا صالحا يتقربون به إلى الله . (٣)

---

(١) جان أمل ريك : مركز المرأة فى قانون حورابى وفى القانون الموسوى ١٥

(٢) أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٢٤

(٣) السابق ٣٠

وكان الفرس يعبدون النار. وعبادة النار تحريف انحدر من مذهب زرادشت، فقد قيل إن أصل دعوته كان التوحيد وعبادة الله الواحد الذى يتجلى نوره فى الشمس والنار.

ومن مظاهر الانحراف الدينى كذلك عبادة الفرس للأكاسرة الذين كانوا يدعون أنه يجرى فى عروقهم دم إلهى.

وفى القرن الثالث المسيحى ظهر مانى فى عصر سادت فيه الشهوة فأخذ يحارب هذه الشهوة الجامحة، ونادى بحياة العزوبة وتحريم النكاح قطعا للنسل، واستعجالا للفناء إلى أن قتله بهرام سنة ٣٧٦م.

وظهر مزدك أواخر القرن الخامس فدعا إلى المساواة المطلقة وشيوعية المال والنساء، ونال تأييد غالبية الناس وبخاصة الشبان والأغنياء، كما حظى بتأييد قباذ «كسرى الفرس» فانتشر الزنى والنهب، واختلطت الأنساب وانحدر الناس بذلك إلى درك من الضياع الخلقى لم تشهده البلاد فى عصر من عصورها(١).

كانت هذه — فى إجمالة موجزة — تضاريس الخريطة الأخلاقية فى دولتى الفرس والروم وما أحاط بالجزيرة العربية. فإذا ماعدنا إلى المجتمع الجاهلى وجدناه — وهو المزحوم بكثرة من الرذائل كما ذكرنا من قبل — لم يخل من قيم إنسانية جليلة: كان فيه الشجاعة الفائقة، والبطولات الرائعة فى القتال حتى أن الموت حتف الأنف كان عارا ما بعده عار.

وكان هناك الكرم الفائق: فالعربى يجود بماله.. بكل ماله فى سبيل إكرام الضيف. وقد حكى الحطيئة — فى قدرة فنية لافتة — قصة كرم رائعة فى قصيدته الميمية المشهورة التى مطلعها:

وطَاوِى ثَلاثٍ عاصِبِ البَطْنِ مُرْمِلٍ   بِبَيْداءَ لَمْ يَعْرِفْ بها سَاكِنٌ رَسْماَ

وتحكى قصة بدوى فقير انقطع فى خيمته بأبنائه فى الصحراء، طرقه ضيف ذات ليل بهيم فاستبد به الأسى والحزن لأنه لايملك مايكرم به ضيفه، فأشار عليه ابنه أن يذبحه ويقدم لضيفه من لحمه طعما، وهمّ الأب بذبح ابنه، ولكن ظهر من بعيد قطيع من حمر الوحش انطلق الأب البدوى إليه وصاد منه «نَحوصا ذات جحش سمينة قد اكتنزت لحما، وقد أطبقت شحما» وأكلوا وشربوا:

وباتُوا كِرَاماً قَدِ قَضَوْا حَقَّ ضَيْفِهِمْ .: وماغَرِمُوا غُرْمًا وقَدِ غَنِمُوا غُنْمَا
وباتَ أبوهُمْ مِنْ بَشَاشَتِهِ أَبًا .: لِضَيْفِهِمِ والأُمُّ مِنْ بِشْرِها أُمَّا(٢)

---

(١) انظر الندوى السابق ٣١ — ٣٣ واحمد شلبى/المجتمع الاسلامى ٢٣ — ٢٤ ومناع القطان: التشريع والفقه فى الاسلام. (٢٣ — ٢٤)

(٢) ديوان الحطيئة ١٥٩ — ١٦١

والقصة — وإن غلب عليها الخيال ، وظهر فيها بصمات قصة الذبيح إسماعيل — تصور مدى حرص العربى على إكرام الضيف ، وخشيته المعرة إذا ماردَّ ضيفه بلا إطعام .

وإذا كان البغي والظلم من أبرز صفات مجتمع الجاهلية فإنه لم يخلُ من النجدة والمروءة والأريحية ، يدل على ذلك قصة حلف الفضول . وتتلخص القصة كما روتها كتب السيرة فى أن قبائل من قريش هى بنوهاشم و بنو المطلب وأسد بن عبدالعزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة تداعت إلى حلف فاجتمعوا له فى دار عبدالله بن جدعان لشرفه وسنه ، فصنع لهم طعاما ، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، فسمت ذلك حلف الفضول .

وسبب عقد الحلف أن العاص بن وائل اشترى بضاعة من « زبيدى » وماطله فى ثمنها وامتنع عن الدفع ، فاستعدى عليه بعض الناس فلم ينصروه لشرف العاص ومكانه فيهم . فوقف الرجل على جبل أبى قبيس مطلع الشمس وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، وأنشد شعرا يعرض فيه أمره ومظلمته ، و يدعو الناس لنصره ، فهب الزبير بن عبدالمطلب وقال : مالهذا مترك ؟ ثم كان الحلف فى دار عبدالله بن جدعان . وسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول ، لأنهم قالوا : لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر .

وقد شهد محمد عليه السلام الحلف فى شبابه . وعن طلحة بن عبدالله بن عوف الزهرى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لقد شهدت فى دار عبدالله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو ادعى به فى الاسلام لأجبت(١) » .

نعم لم يعدم المجتمع الجاهلى هذا « الصوت الآخر » الذى قد ينتصر علانية على رؤوس الأشهاد ، وقد لايكتب له النصر ، وقد يستتر أصحابه ، ولكنهم على أية حال — يؤدون دورا فى صالح الفضيلة والمروءة والأريحية بقدر مايستطيعون .

وقد ظهر ذلك فى تصرفات بعض القرشيين — على كفرهم — تجاه النبى والمسلمين : لقد قاومت قريش دعوة الرسول عليه السلام ، وطاردوه ، وضيقوا عليه الخناق ، وعذبوا أصحابه ، وقتلوا بعضهم ، ولكن كان أشد ألوان القهر ماعرف باسم « صحيفة المقاطعة » فقد كتب القرشيون صحيفة تعاقدوا فيها ألا يناكحوا بنى هاشم و بنى المطلب ، ولا يبايعوهم ولا يكلموهم ، ولا يجالسوهم حتى يسلموا إليهم محمدا عليه السلام . وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها فى سقف الكعبة .

---

(١) ابن هشام ١/١٣٨ ، وانظر الجزء ١٩ من الأغانى (٦٥٩٧ — ٦٦١٦) حيث استوفى روايات متعددة ومختلفة فى سبب الحلف والمشتركين فيه وآثاره ، وذكر أن سن النبى آنذاك كانت ٢٥ سنة .

وانحازت بنو هاشم و بنو المطلب مؤمنهم وكافرهم ــ إلا أبا لهب و ولده ، فإنهم ظاهروا قريشا على بنى هاشم ــ فصاروا فى شعب أبى طالب محصورين مضيقا عليهم أشد التضييق نحوا من ثلاث سنوات ، وقد قطعوا عنهم الميرة والمادة فكانوا لايخرجون إلا من موسم إلى موسم حتى بلغهم الجهد .

وكانت أيام هذا « العزل الاجتماعى » أشد الأيام على نفس الرسول والمسلمين . ولكن من خلال ظلام هذه المحنة ، ومن خلال ركامات الضيق والجوع والأسى ظهرت صور من الرجولة والمروءة والشهامة : بعضها مستتر ، و بعضها ظاهر للعيان لايبالى بعنجهية أبى جهل وأبى لهب وأمثالها ممن تولوا كِبْرَ هذه الجريمه الفادحة .

كان هناك حكيم بن حزام تأتيه العير تحمل الحنطة من الشام فيوجه بعضها ــ تحت ستار الظلام ــ إلى الشعب ، و يضرب أعجازها فتدخل الشعب فيأخذ المحصورون ماعليها من الحنطة .

ومثله كان هشام بن عمرو : يوقر البعير طعاما حتى إذا أقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ، ثم ضرب على جنبه فيدخل الشعب عليهم ثم يأتى به قد أوقره بزا أوبرا فيفعل به مثل ذلك .

ولم يكتف الرجل بذلك بل سعى إلى كرام القوم لنقض الصحيفة ، واستجاب له زهير بن أبى أمية ، ومطعم بن عدى وأبوالبخترى بن هشام وزمعة بن الأسود بن عبد المطلب .. ونجح الرجل فى مسعاه ، وشقت الصحيفة وانتهت بذلك أشق محنة واجهت المسلمين . (١)

ولم يخل المجتمع الجاهلى كذلك من صدق مع النفس ، وصدق مع الآخرين وتحرج من الكذب والمَيْن : فعن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما ــ أن أبا سفيان أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش ، وكانوا تجارا فى الشام فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ مهادنا فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم فى مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ، فقال أبوسفيان : فقلت أنا أقربهم نسبا ، فقال : أدنوه منى ، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره . ثم قال لترجمانه : قل لهم : إنى سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبنى فكذبوه ، فو الله لولا الحياء من أن يؤثروا على كذبا لكذبت عليه . ثم كان أول ماسألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت هو فينا ذونسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت لا . قال فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟

(١) راجع ابن هشام ٣٥٦/١ وإمتاع الأسماع للمقريزى ٢٥

قلت بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قلت لا . قال : فهل يغدر؟ قلت لا . ونحن منه فى مدة لاندرى ماهو فاعل فيها . قال ــ ولم يمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة ــ قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا و بينه سجال : ينال منا ، وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت يقول : اعبدوا الله وحده ولاتشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، و يأمرنا بالصلاة والصدق ، والعفاف والصلة . (١)

فأبو سفيان ــ على كفره ــ يستنكف أن يكذب ، ويمنعه الحياء من الكذب فيصور ماعليه النبى ، وطبيعة دعوته دون أن يمين ، على الرغم من أنه كان لايزال على الكفر وعبادة الأصنام .

●●●●●

قبسات من الفضائل فى ظلمات من الرذائل بعضها فوق بعض : فمجتمع الخوف والدم والرعب لم يخل من الشجاعة والشهامة والنجدة وآداب الفروسية حتى عند كثير من صعاليك العرب .

ومجتمع الجفاف والقحط لم يخل من الكرم والاعتزاز بالضيف .

ومجتمع الميسر والأزلام والخمر لم يخل من رجال حرموا على أنفسهم الخمر فى الجاهلية لأن الأحمق هو « الذى يستر عقله بيده » .

لقد كان مجتمعا من المتناقضات المتضاربة ، والتناقض كان بينا غير خفى : بين كثرة تسير فى طريق الظلام ، وقلة عرفت الحد الأدنى من الفضائل الإنسانية ولكن كثيرا من الفضلاء من هذا المجتمع الجاهلى لم يكونوا أسوياء على طول الخط ، فظهر التناقض أو الانفصامية فى قائمة القيم الواحدة فى الشخصية الواحدة قبل أن يسرى نور الإسلام إلى هذه النفوس فيغسل قلوبها ، و ينقى أعماقها من جذور الشرك : فعبدالله بن جدعان ، الرجل الذى دخل التاريخ من أوسع أبوابه ، وعقد حلف الفضول فى بيته : حلف النجدة ومناصرة المظلوم المضعوف .. الحلف الذى قال عنه النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن بعثه الله نبيا ورسولا « **لقد شهدت فى دار عبدالله بن جدعان حلفا ماأحب أن لى به حمر النعم ، ولو أدعى به فى الاسلام لأجبت** » (٢)

---

(١) البخارى ١/٥ (باب : كيف كان بدء الوحى)

(٢) انظر ص ٢٣ من هذا البحث ، وأنظر كذلك ابن هشام ١ / ١٣٨

وهو الرجل الذى قالت عنه عائشة « كان فى الجاهلية يصل الرحم ، و يطعم المسكين » (١)

هذا الرجل الشهم الكريم القوى الشجاع استحل لنفسه أن يكون نخاسا يتاجر فى أحط تجارة وهى الأعراض : فكان له ست جوار يزنين و يبيع أولادهن (٢)

● ● ● ● ●

وهذه البقية الباقية من الفضائل فى مجتمع الجاهليين وإن تلبست بالروح الجاهلى ، ربما كانت أقباسا تسربت إلى النفس الجاهلية من ديانة إبراهيم وهى الحنيفية السمحاء ، أوربما من اليهودية والمسيحية ، وقد كان لهاتين الديانتين مكانهما فى جزيرة العرب فكانت اليهودية فى بلاد اليمن ... وكانت أيضا بيثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء جاءت مع إسرائيليين فارقوا الشام حين الاضطهادات التى كانت تتوالى على اليهود فى شمال صنعاء وفى جهات من البحرين وفى الحيرة لما تنصر النعمان ، وفى قبائل من طىء وفى عرب الغساسنة بالشام لمجاورتهم المتنصرة من الروم المتدينين بهذا الدين (٣)

وكان للمسيحية مكانها أيضا فى جزيرة العرب ، ولكنها كانت أضعف من اليهودية تأثيرا فى نفس العربى « لأن روح هذا الدين المستفادة من كلام المسيح صلوات الله عليه هى السلم والإغضاء والابتعاد عن الحروب . ولم يكن العرب مبتعدين عنها . ولذلك لما جاء عدى بن حاتم الطائى وافدا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : إنى على دين المسيح فقال له « ألم تكن تأخذ المرباع من غنائم قومك ؟ ».وحل الغنائم والانتفاع بها ليس فى شىء من الدين المسيحى ، ولا اليهودى ، لأن اليهودى يحرق كل ما الوثنيين ، ولا ينتفع به ، والمسيحى يبتعد عن الحرب . (٤)

أما سائر العرب فكانت بعد إسماعيل على دين ابراهيم تعبد الله وتوحده ، أى أن إسماعيل — عليه السلام — بنى الكعبة ، وجعلها مطافا — يحجها أولاده ، فلما كثروا واحتاجوا إلى مبارحة مكة والانتشار فى أجزاء الجزيرة ، كانوا يأخذون معهم شيئا من حجارة الحرم أوالكعبة ليكون معهم أثر من آثار بركتها ، فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة ، فانتشر بذلك تعظيم الحجارة والتقرب بها الى المعبود الأعظم .

---

(١) صحيح مسلم ١/٤٨٩ (باب من مات على الكفر) .

(٢) انظر ص٢٣ من هذا البحث . والحوفى المرأة فى الشعر الجاهلى ٣٩٩

(٣) الخضرى السابق ١/٥٣

(٤) السابق ١/٥٤

ولما سار عمرو بن لحى الخزاعى إلى بلاد الشام ، ورأى ما يفعله أهله من تعظيم التماثيل والتقرب منها مالت نفسه إلى الاقتداء بهم فأخذ من هذه التماثيل شيئا وأقامها على الكعبة التى كان سادنها ، ودعا العرب لتعظيمها فأجابوه ، وكثرت بعد ذلك الأصنام حول الكعبة حتى بلغت عدة مئات ـــ .. وكانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الأحجار لا لاعتقادها أنها آلهه ، وإنما لتقربهم إلى الله سبحانه وتعالى كما قال فى الكتاب « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى » . (١)

فالمسيحية واليهودية والابراهيمية كانت لها مكانها فى جزيرة العرب على اختلاف فى قدر الانتشار ، ومدى تمسك أصحابها بها . مع ملاحظة أن عبادة الأصنام كانت نتيجة غالطة سيئة لهدف طيب نبيل هو حب الكعبة وحب البيت الحرام والبلد الحرام . على أن عبادتها لم تكن مقصودة لذاتها كما ذكرنا ، بل كانت تعبد كوسيلة تقربهم الى الله .

ولكن الذى لاشك فيه أن هذه الديانات غرست غير قليل من القيم فى نفوس العرب ، وإن تلبست بغير قليل من الانحراف كما ذكرنا سابقا .

وفى هذا المقام علينا ألا ننسى منبعا آخر من منابع هذه القيم وهو الفطرة الإنسانية ، وأصلها ـ كما قال أبومسلم والقاضى أبوبكر « من الأخذ بما يرشد إليه العقل فى الإعتقاد والعمل ، .. والنظر المحض فى الآيات الدالة على وجود الصانع ، ووجوب شكره .. والتميز بين الحسن والقبيح و بين الباطل والصحيح بالنظر فى المنافع والمضار» (٢) ..

وهذه الفطرة لو تخلت عنها عوامل الإفساد والإظلام والقهر والإجبار لا ستطاعت أن تسير فى طريق الحق .. إنها الفطرة التى تحدث عنها رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بقوله **« كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه ، وأبواه يمجسانه ، كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء . هل تجدون فيها من جدعاء » ..**

ومن الذين اهتدوا باليقين فى الجاهلية : ورقة بن نوفل الأسدى الذى رفض عبادة الأصنام واعتنق النصرانية ، وصار عالما بها .

ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل الذى لم يدخل يهودية ولا نصرانية ولكن فارق دين قومه ، فاعتزل الاوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل الموءودة ، وسفه أحلام قريش وأصنامها ..

---

(١) انظر الخضرى السابق ١/ ٥٤ ـــ ٥٥

(٢) تفسير المنار ٢ / ٢٧٨

ومن هؤلاء : عثمان بن الحويرث وعبد الله بن جحش(1) .

ولكنها ــ كما قلت ــ كانت حالات قليلة فى مجتمع الجاهليين.وحتى هذه الحالات ــ كما ذكرت ــ تلبس فيها الخير بالشر ، والفضيلة بالرذيلة ..

• • • • •

ثم جاء الإسلام ــ خاتما للأديان ــ وهذه الخاتمية تقتضى أن يكون أكمل الأديان وأوفاها بحاجات الإنسانية ، وأبرعها فى معالجة الأدواء التى حوتها (قائمة القيم الجاهلية) واختلف موقف الإسلام من هذه القيم تبعا لنوعيتها ..

١ ــ فقابل بعضها بالرفض ، وقضى عليه قضاء مبرما .

٢ ــ وأقر بعضها وشجعه ودعا إليه .

٣ ــ وسما ببعضها الآخر: فعاد بالنفع على الدين والناس ..

وكانت عدة الإسلام فى كل أولئك : إحياء الفطرة السليمة والترهيب والترغيب ، والتدرج فى التشريع لتهيئة النفس لقبول التكاليف وأخذ النفس بالأوامر وتجنب النواهى على ما سنعرف بالتفصيل إن شاء الله ..

فموقف الإسلام إذن من قائمة القيم الجاهلية كان موزعا بين هذه الثلاثة :

١ ــ التحريـــــم .

٢ ــ الإقـــــرار.

٣ ــ التسامى والإعلاء .

وسنحاول فى السطور الآتية تفصيل القول فى هذه المواقف الثلاثة :

١ ــ دعا الإسلام إلى وحدانية الله تعالى ، ورفض كل ألوان الشرك ، واعتبر عبادة الأصنام كفرا حتى لو كان تأويل هذه العبادة أنها تقربهم إلى الله زلفى .

وقضية وحدانية الله يتعلق و يرتبط بها « وحدة النبوة الخاتمة » بالنسبة لمحمدبن عبدالله عليه السلام . والتفريط فيها تفريط فى أساس القضية الأصلية وهى الوحدانية وإفراد الله بالعبادة ، لذلك رفض النبى عليه الصلاة والسلام أن يجامل مسيلمة سيد بنى حنيفة بكلمة .. على قوته وقوة قومه : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « قدم مسيلمة الكذاب على عهد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ المدينة فجعل يقول : إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته ، فقدمها فى بشر كثير من قومه ، فأقبل إليه النبى صلى الله عليه وسلم ــ ومعه ثابت بن قيس بن شماس . وفى يد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قطعة جريدة حتى وقف

(١) انظر الخضرى السابق ١ / ٦٠ ــ ٦١

على مسيلمة فى أصحابه ، وقال « لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن أتعدى أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، وإنى لأراك الذى أريت فيه ما أريت ، وهذا ثابت يجيبك عنى » ثم انصرف عنه . فقال ابن عباس :

فسألت عن قول النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأخبرنى أبوهريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم ــ قال : بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب فأهمنى شأنهما ، فأوحى إلى فى المنام أن أنفخهما فنفختهما فطارا ، فأولتهما كذابين يخرجان من بعدى فكان أحدهما العنسى صاحب صنعاء ، والآخر مسيلمة صاحب اليمامة (١) .

وعلى نفس الطريق رفض أبوبكر ــ رضى الله عنه ــ أن يحنى رأسه أمام تيار عاصف بإسقاط ركن من أركان الإسلام ، وكان منطق الرفض أعصف من تيار المطالبة وأعتى « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ــ لقاتلتهم على منعه .. والله لا أرضى منهم إلا بالحرب المجلية والخطة المخزية (٢) ..

وكما حرم الإسلام الشرك بالله بكل ألوانه حرم كذلك السرقة وشرب الخمر وكان تحريم الخمر درسا إنسانياً خالداً فى فلسفة التفنين ، وكان « التدرج التشريعى » ــ كما سنعرف ــ هو أقوم السبل لإقلاع هذه الأمة المخمورة عن الخمر . وكان جوابهم بلسان الحال قبل لسان المقال « إنتهينا .. إنتهينا » ممن سمعوا قوله تعالى آية التحريم النهائى للخمر « .... فهل أنتم منتهون » ..

٢ـ وأقر الإسلام مارأى فيه فضائل إنسانية اتبعها القوم قبل بعثة الرسول ، فالمجتمع الجاهلى كما عرفنا لم يكن يخلو من قيم فاضلة : لقد رأى النبى عليه السلام فى حلف الفضول مثلا أعلى من الأحلاف الإنسانية ، وشهده فى دار ابن جدعان قبل بعثته ، وشهد له بعد بعثته فقال ــ كما ذكرنا من قبل « لقد شهدت فى دار عبدالله بن جدعان حلفا ما أحب ان لى به حمر النعم ، ولو أدعى فى الإسلام لأجبت » .

---

(١) صحيح مسلم ٥ / ٣٢ (كتاب الرؤيا) .

(٢) البخارى ٩ / ١١٥ (كتاب الإعتصام ــ باب الإقتداء بسنة رسول الله عليه السلام) ـ وراجع كذلك : عبدالمتعال الصعيدى فى كتابه : القضايا الكبرى فى الإسلام . (٧٣ ــ ٧٥) قال عبدالله بن مسعود « فأما الخطة المخزية فأن يقروا بأن من قتل منهم فى النار ، ومن قتل منا فى الجنة ، وأن يدوا قتلانا ، ونغنم ما أخذنا منهم ، وأن ما أخذوا منا مردود علينا ، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم » ..

٣ ــ ومن القيم والقدرات ما أبقى الإسلام على منبعه وأصله الدافع ، ولكنه وجه مسارها الوجهة الإنسانية الخيرة الصحيحة . وهو يشبه الى حد بعيد ما يسميه النفسيون « التسامى أو السمو » أو الإعلاء Sublimation ولكن يجب أن يلاحظ أن عملية الإعلاء لا تنجح فى صرف الطاقات المكبوتة بطريقة ناجحة ملائمة إلا إذا أعيد تنظيم الشخصية بأكملها على أساس جديد لتقوية جميع نواحيها ، وتحقيق وحدتها وتكاملها بتأثير المثل الأخلاقية العليا . والتربية السديدة الصالحة هى التى تحقق إعلاء الغرائز ، وتنقية الميول مما يشوبها من عوامل الأثرة والضعف وذلك بتحقيق وحدة الشخصية وتكاملها و بتقوية الإرادة وتوفير وسائل ضبط النفس (١) ..

وحقق الإسلام هذا الإعلاء بربط الشخصية بالدين وقيمه التربوية من ناحية وربط العمل بالجزاء من ناحية ثانية ، وتقييم العمل على أساس النية من ناحية ثالثة .

ومن أمثلة الإعلاء : موقف الإسلام من الشعر : والمعروف أن العرب أمة شاعرة ، وأن الشعر ديوان العرب سجلت فيه أيامها وتاريخها ومعاشها ودفعت به ، و به هاجمت ، و به مدحت ، و به تغزلت . وكانت القبيلة تقيم الأفراح إذا مابزغ فيها نجم شاعر : فالكلمة عند أمة البلاغة والفصاحة كان لها فعل السحر ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ إذ قال : **« ان من البيان لسحرا »** ..

والشعر الجاهلى ــ شأن الأدب فى كل أمة وخاصة فى عهد الطفولة الأمية كان فيه ــ من ناحية المضمون الفكرى ــ الوضىء والوضيع : كان فيه الغزل الفاحش كما كان فيه الغزل العفيف . وكان فيه الهجاء المقذع ، كما كان فيه التغنى بالمناقب والخصال الإنسانية العليا . وكان فيه من الأوصاف ما هو موغل فى الكذب كما كان فيه ما يتدفق بالصدق (٢) ..

ونزل قوله تعالى : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ (٣)

(١) د. يوسف مراد : مبادىء علم النفس العام ١٥٣

(٢) من نماذج الشعر الفاحش ما نظمه أمرؤ القيس فى يوم دارجلجل (انظر معلقته فى شرح القصائد العشر للتبريزى ص ١٣) .

(٣) الشعراء ٢٢٤ ــ ٢٢٧ ..

وقد نزلت الآيات الثلاث الأولى . «والشعراء .. يفعلون» ابتداء ـ وفيها حكم عام صارم على الشعراء ، فبكى الشاعر المسلم عبدالله بن رواحة ، فنزلت الآية الأخيرة (٢٢٧) تستثنى من هذا الحكم.«الذين آمنوا وعملوا الصالحات ..» .

فالشعر لم يحرّمه الإسلام على إطلاقه ، وقد قال حجة الإسلام أبوحامد الغزالى أما الشعر فكلام حسنه حسن ، وقبيحه قبيح إلا أن التجرد له مذموم ... وإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره . (١) .

فدار التحريم والتحليل هنا هو المضمون الفكرى للشعر لافن الشعر ذاته . فإذا تضمن معنى خبيثا يسيء إلى الناس أو الدين فهو حرام ، وإلا فهو من قبيل المباح الذى لاحرمة فيه ، ونستطيع أن نستدل على صحة ماذهبنا اليه بما يأتى :

(أ) ماينسب اليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أحاديث تمجد بعض الشعر وتعظمه ، من ذلك قوله : **إن من الشعر لحكمة .** (٢) وقوله ـ عليه السلام ـ : أشعر كلمة تكلمت بها العرب قول لبيد :

ألا كل شيء ماخلا الله باطل (٣)

(ب) سماعه الشعر : فقد روى عمرو بن الشريد عن أبيه قال « ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال : **هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت شيء ؟** قلت نعم : قال : **هيه** ، فقال : فأنشدته بيتا ، فقال : **هيه** ، ثم أنشدته بيتا حتى أنشدته مائة بيت» (٤) ..

(جـ) إنشاده فى بعض المواقف أبياتا من الرجز والشعر.فيروى أنه عليه السلام ـكان يمشى إذ أصابه حجر فعثر فدميت إصبعه فقال :

هل أنت إلا إصبع دميت .. وفى سبيل الله مالقيت (٥)

(د) طلبه من حسان أن يكون لسان المسلمين الناطق وأن يقوم بهجاء الكفار ردا على أهاجيهم (٦) وكان يشجعه و يثنى عليه .. و يروى أنه جاوب عنه أبا سفيان بن الحارث :

---

(١) الاحياء ١٥٦٩/٩

(٢) البخارى ٤٢/٨ (كتاب الأدب) والإحياء السابق نفس الصفحة .

(٣) صحيح مسلم ١١٠/٥ (كتاب الشعر)

(٤) السابق نفس الصفحة .

(٥) البخارى السابق ٤٣

(٦) الاحياء السابق نفس الصفحة .

هجوتَ محمداً وأجبتُ عنهُ   وعندَ اللهِ فى ذاكَ الجزاءُ

قال له رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ جزاؤك عند الله الجنة ياحسان . فلما قال حسان :

فإن أبى ووالدَهُ وعرضِى   لعرضِ محمدٍ منكمْ وقاءُ

قال له : « **وقاك الله حر النار** » فقضى له بالجنة مرتين فى ساعة واحدة ، وسبب ذلك شعره . (١)

(هـ) وكان يشجع عبدالله بن رواحه ، ويدعوله ، ويقول عنه للمسلمين « **أن أخا لكم لايقول الرفث هو عبدالله بن رواحة** » .

وأخرج الزبير بن بكار عن هشام بن عروة عن أبيه قال : ـــ
ماسمعت بأحد أجرأ ، ولا أسرع شعرا من عبدالله بن رواحة يوم يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **قل شعرا تقتضيه الساعة ، وأنا انظر إليك** » ثم أبده بصره ، فانبعث عبدالله بن رواحة يقول :

إنى تفرسْتُ فيك الخيرَ أعْرِفُه   والله يَعْلَمُ ماإنْ خانَنِى بَصَرُ
أنْتَ النبىُّ وَمنْ يُحْرَمْ شفاعته   يَوْمَ الحسابِ فقد أزْرى بهِ القَدَرُ
فثبت الله ماآتاكَ مِنْ حَسَنٍ   كالمرسَلِينَ ونصراً كالذى نَصَروَا

فقال رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم : **وأنت فثبتك الله** . قال هشام بن عروة : فثبته الله أحسن ثبات ، فقتل شهيدا ، وفتحت له أبواب الجنة فدخلها (٢) .

فالإسلام لم يوقف تدفق الطاقة الشعرية عند الشعراء كما اعتقد البعض ، ولكن نهيه كان منصبا على الشعر الفاحش الذى يخرج على قواعد الدين والخلق ، أو بتعبير آخر أصبح الشعر « ملتزما » بالأيديولوجية الإسلامية الإنسانية .. بعد أن كان يسير فى طريق فوضوية ينهل من مناهل العداء والأنانية والتطلع العدوانى والغريزة الحمقاء .

وتصدق هذه المقولة بوضوح على شخصية شاعر مثل عبدالله بن الزبَعْرى الذى يعد من أشعر شعراء قريش ، وكان من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى

---

(١) العمدة ١/٥٣

(٢) الزبير بن بكار : الأخبار الموفقيات ٦٣٣

أصحابه بلسانه ونفسه . ولما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة هرب ابن الزبعرى مع شاعر آخر هو هبيرة بن أبى وهيب إلى نجران خوفا من النبى عليه السلام (١) .

و يظهر أنه كان مطبوعا على الهجاء ، عدوانى الطبيعة ، يدل على ذلك قصة أوردها ابن سلام الجمحى ، وخلاصتها : أن الناس أصبحوا يوما بمكة وعلى دار الندوة مكتوب :

أَلهىَ قُصَيًّا عن المَجْدِ الأساَطِيرُ ... ورشْوَةُ مِثْل ماتُرْشَى السَفَاسِير
وأكْلُهَا اللَّحْم بَحْتاً لاخَلِيطَ لَهُ ... وَقَوْلُها رَحَلَتْ عِيرٌ مَضَتْ عِيرُ

فأنكر الناس ذلك وقالوا : ماقالها إلا ابن الزبعرى ، وأجمعوا على ذلك رأيهم وكادوا يقطعون لسانه (٢) .

فهذا الهجاء الذى لامبرر له ، حيث لا ثأر و لاخلاف فى الدين والمعاش ، وإجماع قريش على أن مثل هذا البذاء الفاحش لا يأتيه الا ابن الزبعرى ... كل أولئك ينم على « نفسية عدوانية » بطبعها ، و يفسر لنا سلاطة لسانه وفحشه على المسلمين والإسلام ومحمد عليه السلام .

فلما أسلم « سما » الإسلام بطاقته الشعرية القادرة ، وصار ابن الزبعرى لسان صدق وحق فى الدفاع عن الإسلام ، وحث المسلمين على الجهاد ورثاء من استشهد منهم . ومن أجمل مانظمه ماقاله فى رسول الله عليه السلام حين أسلم :

يارسولَ المليكِ إنَّ لِساني ... راتِقٌ مافَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ
إذْ أجارى الشيطانَ فى سَنَنَ الغىّ ، ... ومن مال ميله مثبور
آمن اللحم والعظام بما قلـ ... ـت فنفسى الشهيد أنت القدير
إن ماجئتنا به حقٌ صدق ... ساطعٌ نورهُ مضىء مُنِيرُ
جئتَنا باليقين والبرِّ والصد ... ق ، وفى الصدقِ واليقين سرورُ
أذهبَ اللّه ضلةَ الجهل عنّا ... وأتانا الرخاءُ والمَيْسُورَ (٣)

● ● ● ● ●

---

(١) أسد الغابة ٣/٢٣٩.وانظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٤٨

(٢) طبقات فحول الشعراء ١/٢٣٦

(٣) أسد الغابة السابق ٢٣٩ وإن أردت مز يدا من الشواهد الكاشفة عن موقف النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الشعر فانظر ذلك الفصل القيم الذى عقده الإمام عبدالقاهر الجرجانى فى كتابه « دلائل الإعجاز » من ص ٩ إلى ص ٢٣ .

وفى العرب كما عرفنا قوة وحماسة وشجاعة وطبع مغروس فى أعماقهم باستعمال القوة فى معالجة أمورهم ، فنهم من افتخر بالظلم ، حتى كاد الظلم يكون قاعدة حياة ، وسلكت غريزة المقاتلة مسلكها المحتد العاتى المنحرف الذى صوره الشاعر فى قوله :

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلاّ أخانا

هذه الغريزة المقاتلة القاتلة لابد أن تستغرق بالإعلاء ، والاصارت « قدرة » مدمرة قد تكمن إلى حين — إذا اكتفينا بالتهدئة أو بالمسكنات المؤقتة — ثم تعود كأضرى ماتكون القدرة ، ولكن الإسلام (سما) بهذه الغريزة حين استغرقها فى الجهاد فى سبيل الله : فبعد سنوات من المسالمة والعذاب والمعاناة نزلت أول آية تأذن بالجهاد دفاعا عن النفس وعن العقيدة « أُذِن للذين يقَاتَلونَ بأنهمُ ظُلموا ، وإن اللهَ على نَصرِهم لَقَدير » . (١) ثم توالت بعد ذلك عشرات من الآيات تأمر بالقتال ما اقتضى الأمر دون عدوان ، وتنظم شئونه وشروطه وتصور أحوال المسلمين فيه . ومن هذه الآيات :

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (٢)

﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٣)

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٤)

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٥)

---

(١) الحج ٣٩
(٢) البقرة ١٩٠
(٣) البقرة ١٩١ ثقفتموهم : وجدتموهم . الفتنة : الشرك فى الحرم
(٤) آل عمران ١٥٧
(٥) النساء ٧٤

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ (١)

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٢)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٣)

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) * وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤)

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٥)

---

(١) النساء ٧٥

(٢) النساء ٧٦ الطاغوت : الشيطان

(٣) الانفال ١٥ ، ١٦

(٤) الانفال ٥٩ ــ ٦١ زحفا : متجهين نحوكم لقتالكم . متحرفا لقتال : مظهر الإنهزام خدعة . متحيزا إلى فئة : منضما إليها ليقاتل العدو معها . باء : رجع .

(٥) التوبة ٢٩

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١)

ومن هذه الآيات نستطيع أن نتبين فى سهولة إنسانية الجهاد الإسلامى وأخلاقيته.

١ـ فهو ليس قتالا للتخريب والتدمير والغنم والسلب، ولكن فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

٢ـ وهو قتال كان فى أغلبه دفاعيا: دفاعا عن النفس والأرض والعقيدة **(فإن قاتلوكم فاقتلوهم)**.

٣ـ والسلام هو الأصل، أما القتال فهو الاستثناء أو «تصرف الضرورة» بدليل أن المسلمين ظلوا يتحملون الأذى والهوان ثلاثة عشر عاما، ولم يؤذن لهم فى القتال إلا بعد ذلك ثم بعد الأمر بالقتال «**إن جَنَحُوا للسَّلمِ فَاجنَحْ لها**».

٤ـ والمؤمن بعد ذلك مطالب أن يكون إنسانا فى القتال: فلا يحرق، ولا يدمر ولا يجهز على جريح، ولا يقتل شيخا ولا طفلا ولا رجل دين.
وعليه من ناحية أخرى أن يكون شجاعا قوى الشكيمة، صعب الملتقى ثابت القدم لا يعرف إلى الفرار سبيلا، فلا يتراجع إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة.

٥ـ وهو فى القتال يجب أن يكون حريصا على تحقيق إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة: فإن كانت الأولى.. فقد جعل كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا هى السفلى، وإن كانت الثانية.. فهو فى الجنة من الأحياء الذين هم عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله.

٦ـ ولكن على المؤمن حتى فى فترات السلم أن يكون على أهبة الاستعداد لكل قتال طارىء مفاجىء، فيعد من ضروب القوة ما يستطيع. ومن الحكم البالغة «إن الاستعداد للحرب هو أضمن الوسائل لتحقيق السلم».

بكل هذه الملامح اتسم «الجهاد الإسلامى» الذى كان البديل القويم للقتال الجاهلى العدوانى أو إن شئت فقل هو التسامى والإعلاء من جانبيه:

---

(١) آل عمران ١٦٩ ـ ١٧٠

(أ) من ناحية الوسيلة والطريقة : فالمسلم عليه أن يكون « إنسانا » متسلحا بروح الإسلام الأخلاقية فى التعامل مع أعدائه أثناء القتال و بعده .

(ب) من ناحية الهادفية : فلم يعد القتال فى سبيل السلب والنهب والماء والمرعى والثُّور على طريقة « بغاة ظالمين وما ظلمنا » .

ولكنه أصبح « فى سبيل الله » وهو تعبير جديد على المجتمع الجاهلى يمكن أن يكون مرادفا لتعبير آخر هو « الرسالة الإنسانية » ، و « سبيل الله » من التعبيرات التى ألح عليها القرآن ، وكررها أكثر من مائة مرة .

وبهذا « الإعلاء » استطاع النبى عليه الصلاة والسلام — عمليا — أن يصْنع من « البدوى العدوانى » مجاهدا من الطراز الأول ، واستطاع النبى أن يغرس فى نفس العربى حب الجهاد فى سبيل الله : شغل بالجهاد نفسه ، وملأ قلبه .. وشغل وقته ، فكانت بدر وأحد والخندق والفتح وحنين وتبوك .. عدا أكثر من ثمانين سرية خرجت للجهاد فى حياة النبى عليه السلام .

وجاء أبو بكر فعقد أحد عشر لواء لقتال المرتدين بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم — وطرق أبواب فارس والروم .

وفى عهد عمر كانت نهاية الأسدين فارس والروم ، كما فتحت مصر ، ومُصِّرت الأمصار .

ولم يعد عند العربى المسلم « فراغ » من الوقت يشغله بغير الجهاد .. ولم يعد عنده فراغ نفسى يشغله بغير نشر كلمة الله فى آفاق الأمصار الممتدة فى جهات المعمورة الأربع .

• • • • •

وعودا على بدء .. أذكر القارىء بخلاصة موقف الإسلام من أخلاقيات المجتمع الجاهلى ، أو ما سميناه بقائمة القيم الجاهلية . وقد رأينا أن موقف الإسلام اختلف باختلاف طوابع هذه القيم على النحو التالى : —

١ — فكان هناك ما باركه الإسلام وأبقى عليه ونماه كالكرم والشجاعة والنجدة ونصرة المظلوم ، والذى كان مثالها التاريخى الحى حلف الفضول (١) ، مع وصل كل أولئك بالمعين الربانى الغنى الثّرّار.

---

(١) وهذا يدل على سماحة الإسلام ومرونته وإنسانيته . قال الإمام النووى عن أحلاف الجاهلية « والمحالفة على طاعة الله تعالى والتناصر فى الدين ، والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق فهذا باق لم ينسخ وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم « وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة . » صحيح مسلم ٥ / ٣٩٠

٢ــ كان هناك ماحرمه الإسلام تحريما قاطعا .. كالخمر والميسر والأنصاب والأزلام والغدر والسرقة والزنى .

٣ــ وأخيرا كان هناك ما « سما » به الاسلام و«علاّه» مع بقاء مأصله النفسى كالطبيعة القتالية وملكة الشعر .

وارتكازا على هذه المحاور مضافا إليها محور رئيسى رابع هو محور « الأوامر الإسلامية » ، ارتكازا على كل أولئك تكونت « قائمة القيم الإسلامية » التى أخذ المسلمون أنفسهم بها ، واستطاع النبى عليه السلام ومن بعده خلفاؤه الراشدون أن يصنعوا بها جيلا تقيا نشر كلمة الله ، وجاهد بالنفس والمال ، وكان بخلقه وعلمه قمة لاتنحنى لمخلوق ، ولاتلين لهوى فكانوا كما قال عنهم استاذهم .. أستاذ الحياة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ـ «أصحابى هم الأنجم الزواهر بأيهم اقتديم اهتديتم » .

● ● ● ● ●

وبعد هذه المسيرة الموجزة مع تاريخ القيم الجاهلية وطبيعتها وألوانها ــ من صالح وطالح ــ ومكانها من نفس الجاهلى وفى مجتمع الجاهليين آن لنا أن نتعرف على طبيعة القيم الإسلامية لنقف على حدودها وسماتها وخصائصها الفارقة التى تجعل لها ذاتية وكيانا إسلاميا مميزا . وهذا موضوع الفصل الثانى من هذا البحث .



الفصل الثانى

خصائص القيم الإسلامية



القيم الإسلامية هى مجموعة الأخلاق التى تصنع نسيج الشخصية الإسلامية وتجعلها متكاملة قادرة على التفاعل الحى مع المجتمع ، وعلى التوافق مع أعضائه وعلى العمل من أجل النفس والأسرة والعقيدة .

وقد سبق أن ذكرنا أن الآيات الأولى التى نزلت على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ لم تكن دعوة إلى القراءة فحسب ... ولم تكن دعوة إلى تلقى العلم وكفى .. ولكنها كانت إلى ماهو أشمل وأعمق .. كانت دعوة إلى التحرك الديناميكى الناشط للبناء والإبداع استجابة للداعى « **الذى خلق ... خلق الإنسان من علق** » وكانت « العلمية الحركية الناشطة » من أعظم الأسس التى اعتمدت عليها القيم الإنسانية فى الإسلام .

والقيم الإسلامية فى مجموعها نوعان :

١ ــ القيم السلبية : أو قيم التخلى : وتتجلى فى هجر ما نهى الله عنه من شرور وموبقات كشرب الخمر والزنى والكذب والسرقة ... الخ

٢ ــ القيم الإيجابية : وهى القيم التى كلف المسلم بالتحلّى بها وأخذ نفسه بمقتضياتها مثل : الصدق والأمانة والرحمة وصلة الرحم والكرم وحسن الجوار .

ومن فضول القول أن ننبه إلى أن المسلم مطالب بالنوعين معا .. مطالب بترك مانهى الله عنه ، ومطالب بفعل ماأمر الله به « **ماآتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ..** »(١) .

وأغلب القيم الإيجابية يتضمن نهيا عن نقيضها والعكس صحيح:فالأمر بالصدق مثلا يتضمن نهيا عن الكذب ، والنهى عن السرقة يعد أمرا ضمنيا بالأمانة .. الخ .

---

(١) الحشر ٧

والقيم الإسلامية اتسمت بسمات وخصائص متعددة:منها مايتعلق بمنهج التكليف وطريقته ، وأغلبها أساسي أصيل لاينفصل عن طبيعتها وجوهرها ، وهذه السمات والأبعاد تكاد تتلخص فيما يأتي :ـ

١ـ التدرج التكليفي .

٢ـ الوسطية العادلة .

٣ـ الهيمنة التشريعية .

وسنحاول في الصفحات التالية عرض هذه السمات و بيان مظاهر العظمة فيها :

أولا : التدرج التكليفي

التدرج سمة من أبرز سمات الوجود الحي : فخلق الأحياء يتكامل تدريجيا نطفة .. علقة .. مضغة .. عظام تكسى لحما .. الخ

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (١)

والكائن الحي بعد أن يرى نور الحياة يتدرج به الوجود من رضيع إلى طفل .. إلى شاب .. إلى كهل .. إلى شيخ . وهذا ماعرضه القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ

(١) المؤمنون ١٢ـ ١٤ سلالة : خلاصة . قرار مكين : الرحم . علقة : دما متجمدا . مضغة : قطعة لحم قدر مايمضغ . تبارك : تعالى

عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ (١)

نعم والأرض هامدة .. يحييها الماء .. و يلقَى فيها الحبّ الذى ينفلق عن ساق ضعيفة .. ثم تنمو وتشتد لتحمل الأوراق والأزهار، ثم الثمار — وإيتاء الأكل .. ثم تنتهى الدورة لتبدأ دورة إنباتية جديدة وهكذا ..

ودورات التطور الحضارى ابتداء من العصر الحجرى . لامكان للطفرة فيها .. ولكنها اعتمدت على « الجرعات الحضارية المتدرجة » إن صح هذا التعبير . و بين الإنسان فى العصر الحجرى ، والإنسان فى عصرنا الحاضر : عصر الفضاء والذرة والتكنولوجيا بين هذا الإنسان الأول والإنسان الحاضر ملايين من السنين لم ينقطع فيها العمل والتجارب والعذاب والنجاح والإخفاق .

فالتدرج اذن .. هوسنة جوهرية من سنن الحياة . وكان الإسلام — وهودين الفطرة — على حق حين جعل التدرج والتدريج سمة منهجية من أبرز سماته .. لافى تربية المسلمين على القيم الأخلاقية فحسب بل فى التشريع كله من عبادات إلى معاملات إلى عقوبات » ، وأهم ماحققه الاسلام بهذا « التدرج التشريعى » فائدتان :

١ ضمان تنفيذ العمل (فعلا أوتركا) : بعد أن تهيأت النفوس لذلك خطوة خطوة : فالتدرج تيسير يوفر على المسلم الإجهاد والمشقة .. لذلك كانت « الاستطاعة » شرطا من شروط القيام بالتكليف « **لا يكلف الله نفسنا إلا وسعها** ».(٢) وعن عبدالله بن عمر — رضى الله عنهما — قال : كنا إذا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة .. يقول لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : **فيما استطعتم** (٣) .

وعن أميمة بنت رفيقة قالت « أتيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى نسوة بايعنه على الإسلام . فقلن يارسول الله : نبايعك على الا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ولانزنى ،

---

(١) الحج ٥ مخلّقة : مستبينة الخلق مصورة . لتبلغوا أشدكم : كمال قوتكم وعقبلكم . أرذل العمر : أخسّه ، أى الخرف والهرم . هامدة : يابسة قاحلة . ربت : ازدادت وانتفخت . زوج بهيج . صنف حسن نضير

(٢) البقرة ٢٨٦ . وسعها : طاقتها وماتقدر عليه .

(٣) مالك : الموطأ ٦٠٨ (كتاب البيعة)

نقتل أولادنا ، ولانأتى ببهتان نفتر يه بين أيدينا وأرجلنا ، ولانعصيك فى معروف . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : « **فيما استطعتن وأطقتن** » (١)

والاستطاعة أو الإطاقة من أهم مظاهر التيسير الإسلامى بل هى جوهر هذا التيسير . وهذا التيسير لايمكن أن يتحقق ـ ومن ثم يكون العجز عن التنفيذ ، أوعلى الأقل يكون الإعنات والحرج ـ إذا مانزلت التكاليف طفرة بلاتدريج .

٢ — ترسيخ التكاليف والقيم فى نفوس المؤمنين : فتدريج هذه التكاليف وتوزيعها على مدى زمنى طويل يثبت جذورها فى أعماق المؤمن ، ويجعله قديرا على حفظها والحفاظ عليها ، حتى تصبح جزءا من كيانه ونسيجه النفسى والعقلى والروحى ، ولونزلت هذه التكاليف مرة واحدة لأنسى بعضها بعضا .

ولنا فى القرآن المثل الأعلى : لقد نزل منجما على مدى ثلاثة وعشرين عاما ، فحفظه المسلمون وحافظوا عليه والتفوا حوله وأحبوه واعتزوا به وأخذوا أنفسهم به أمرا ونهيا ، وكان منهم من يتعمد — على قدرته فى الحفظ ـ ألا يحفظ آية جديدة إلا بعد أن يأخذ نفسه بالسابقة عليها و يعمل بها فى حياته وحياة أسرته .

إن التهيىء النفسى يجعل النفس تتقبل التكاليف بقبول حسن ، لأن النفس بهذا التهيىء تكون قد تفتحت واستعدت للتلقى ، فيمضى الأمر يسرى فى أعماقها فى سهولة و يسر سريان الدم فى العروق والنور فى الظلمات .

ولأمر ما . لم ينزل الوحى على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلا بعد سنوات من تحنثه شهرا كل عام فى حراء ، ينقطع فيه عن الناس و يعبد ربه و يتأمل عظمة الله فى سمائه وأرضه بعيدا عن شرور الناس وصراعهم ومشكلاتهم (٢) . .

وقبل نزول أول آية من آيات القرآن الكريم كان محمدا ذا نفس نقية وقلب صاف مهيأ لتلقى هذا الكتاب العظيم بعد أن انصلقت هذه النفس العظيمة بهذا التحنث وبمهيئين آخرين :

الأول : صرف الله له عن موبقات الجاهلية ومفاسدها وملاهيها وأصنامها ، وماخصه الله سبحانه وتعالى — به وحماه حتى فى ستره عند بناء الكعبة : إذا أخذ إزاره ليجعله على

---

(١) السابق : نفس الصفحة

(٢) انظر ابن هشام ١ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

عـاتقـه ليحمل عليه الحجارة ، وتعرى ، فسقط إلى الأرض حتى رد إزاره عليه فقال له عمه : مابالك ؟ فقال : إنى نهيت عن التعرى (١) .

الـثـانـي : الـرؤيـا الـصـادقـة : فعن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أن أول مابدأ به رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة الله به .. الرؤ يا الصادقة : لا يرى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ رؤ يا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح ، قالت « وحبب إليه الخلوة ، فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده » (٢) .

و بعد هذه التمهيدات والتهيئات الخلقية والنفسية والروحية ، كان نزول القرآن حيث التربة معدة لتلقى البذرة الخالدة التى صارت شجرة شامخة آتت أكلها ثمارا دانية القطوف .

● ● ● ● ●

والقرآن الكريم ــ كما أشرنا ــ لم ينزل فى يوم أو يومين ، ولم ينزل فى عام أو عامين ، بل نزل منجما على مدى ثلاثة وعشر ين عاما .. فى شكل « جرعات » دينية وخلقية واجتماعية ترتبط بالأحداث والوقائع فكان كالدواء الذى يؤتى نتائجه الطيبة على المدى الطو يل وبجرعات قليلة تبعا لمقتضيات الأحوال .

وكانت قاعدة التدرج التشر يعى من أبرز سمات النهج الاسلامى فى التشر يع وفرض التكاليف مراعيا فى كل أولئك قدرة الناس واستطاعتهم .

وتركزت التكاليف المكية فى القرآن على الكليات وأصول العقيدة من توحيد الله وترك عبادة الأصنام وإخلاص العبادة له وحده، و يذكر الناس بالبعث والجزاء ، و يصف مشاهد القيامة ، و يعرض صور النفخ فى الصور والقيام من القبور وتوز يع الصحف ووزن الأعمال والمرور على الصراط ودخول المتقين الجنة ، ودخول الكافر ين النار (٣) .

فلما انتقل النبى ــ عليه السلام ــ إلى المدينة .. ارتفع منسوب التكاليف لتلبى مقتضيات نشأة الدولة الجديدة ، وليتم التشر يع الخالد للناس كافة فى كل العصور جاءت سور القرآن طوالا بعضها يتكون من مئات الآيات ، وهى تفصل قواعد المعاملات والفرائض والحدود والجهاد والحقوق والقوانين المدنية والتجار ية . (٤) فالزكاة مثلا لم تفرض فى مكة بل فرضت فى المدينة بعد الهجرة بعامين . وصيام رمضان وكذلك زكاة الفطر لم يفرضا إلا بعد الهجرة بقرابة عام ونصف . والصلاة التى فرضت بمكة فى العام الثانى عشر من البعثة ليلة

---

(١) الشفا ١/٧٣٠ .

(٢) ابن هشام ١/٢٤٠ . وانظر البخارى ١/٣ (باب بدء الوحى) وانظر ٧/٢١٤ (كتاب التفسير)

(٣) انظر عبد الله شحاته : علوم القرآن والتفسير ص ٦٢ ، وانظره كذلك من ص ٦٩ الى ص ٧٤ .

(٤) انظر السابق ٧٥ ــ ٨١

الإسراء والمعراج أتمت ثنائيتها أربعا في المدينة : فعن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين ــ رضى الله عنها ــ قالت : فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين فى الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد فى صلاة الحضر (١) .

ومعنى ذلك أن المسلمين ظلوا قرابة عشر سنوات يصلون و يعبدون الله بغير تحديد إلى أن فرضت الصلاة ثنائية قبل الهجرة بعام تقريبا ، ثم صارت الصلاة رباعية فى المدينة (٢) .

وكذلك لم يشرع الجهاد إلا بعد هجرة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى المدينة ، لذلك نجد آيات الجهاد كلها مدنية ، واتساقا مع قاعدة « التدرج التكليفى » بدأت مشروعية الجهاد بالإذن لا « بالفرض » وذلك فى قوله تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٣)

أما « فرضية » الجهاد وإلزام المسلمين به لأول مرة فيتمثل فى قوله تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤)

---

(٢) البخارى ١/٩٩ (كتاب الصلاة) وانظر كذلك ابن هشام ٢/١٢

(٢) كان الإسراء والمعراج ليلة الإثنين ٢٧ من رجب قبل الهجرة بعام تقريبا (٦٢١م) ، ثم كانت هجرته ووصوله إلى المدينة فى يوم الإثنين ١٢ من ربيع الأول وهو يوافق الثامن والعشرين من يونيو ٦٢٢م . (انظر المقريزى : إمتاع الأسماع ٥٠)

(٣) الحج ٣٩

(٤) البقرة ٢١٦ . وانظر زاد المعاد ٢/٥٨ حيث رد ابن القيم بحجج دامغة على من ذهب الى أن آية الإذن بالقتال مكية وكذلك سورة الحج .

ولكن يجب أن ننبه إلى أن سورة البقرة هى أول السور المدينة نزولا . أما سورة الحج فهى السابعة عشرة فى الترتيب النزولى بالمدينة . وهذا الترتيب النزولى يقتضى ــ فى الظاهر ــ ان فرضية القتال جاءت قبل الإذن به ، وهذا يناقض طبيعة الإسلام ومنهجه التشريعى فى التدريج . لذلك نرجح ــ مع تسليمنا ــ بمدنية السورتين . ان آيةالحج فى الإذن بالقتال والآيتين التاليتين لها (٤٠ ، ٤١) نزلت على النبى وهو فى طريقة من مكة إلى المدينة مهاجرا اوبعد استقراره بالمدينة قبيل نزول سورة البقرة .

وفى المدينة كانت زيادة التكاليف أمرا منطقيا يتفق مع واقعين :

الأول : هو واقع المسلمين العقائدى : فقد مضى على إسلام أغلبهم أكثر من عشر سنوات ، وهى مدة كافية لصقل نفوسهم ، وفتح قلوبهم لتقبل كل جديد من التكاليف .

والثانى : هو واقع المسلمين الاجتماعى والسياسى الجديد : فقد أصبح لهم دولة جديدة لها أسسها وأركانها ودستورها وقيادتها . وقد صور القرآن الكريم الفرق الهائل بين حال المسلمين فى مكة وحالهم فى المدينة فى قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١) ..

ولكن التدرج التشريعى يظهر بأجلى صورة وحكمة فى تحريم الخمر ، لقد كان المجتمع الجاهلى مريضا بشرب الخمر والإقبال عليها وإدمانها وكان ذلك من أبرز أمراضه الاجتماعية ، يصور ذلك ماذكرناه فى الفصل السابق من أشعار الجاهليين ، وأدل من كل أولئك قول السيدة عائشة — رضى الله عنها .

«... حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شىء لاتشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبدا » (٢) .

وقد مرت مسيرة تحريم الخمر بمراحل زمنية تمثلها هذه الآيات التى نوردها بترتيب نزولها :

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣)

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ (٤)

---

(١) الأنفال ٢٦

(٢) البخارى ٦/٤٢ (كتاب فضائل القرآن)

(٣) النحل ٦٧ . سكرا (بفتح الأول والثانى) شرابا مسكرا

(٤) البقرة ٢١٩ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾(١)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (٢)

وهذه الآيات الأربع تمثل موقف الاسلام من الخمر إلى أن وصل إلى القرار الحاسم بتحريمها تحريما قاطعا أى أنها تمثل أربع مراحل تصاعدية فى طريق التحريم هى :

١ — التوطئة بالتلميح البعيد .
٢ — التوطئة بالتصريح المباشر .
٣ — التحريم الموقوت .
٤ — التحريم النهائى الحاسم .

وسنحاول أن نعرض فى إيجاز لكل مرحلة من هذه المراحل حتى نقف على روح الدين الإسلامى وعبقريته فى هذه السمة .. سمة التدرج التشريعى :

١ — التوطئة بالتلميح البعيد : فالآية ٦٧ من سورة النحل — وهى مكية بلا خلاف تشير إلى أن القر يشيين يستخرجون من البلح والأعناب خمرا وألوانا أخرى من الرزق الحسن . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن فى ذلك وجهين :

أحدهما : أن تكون منسوخة ، وممن قال بنسخها الشعبى والنخعى .

والثانى : أن يجمع بين العتاب والمنة (٣) ..

---

(١) النساء ٤٣ : وقد ذهب الأستاذ/عودة فى كتابه : التشريعى الجنائى الإسلامى : القسم العام ص ٥٠ والقسم الخاص ص ٤٩٨ مذهب من يرى أن آية النساء نزلت قبل آية البقرة ، وهذا غير صحيح لأن البقرة كانت أول سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة ونزلت النساء فى السنة السابعة بعد الحديبية ، أما المائدة فنزلت فى السنة الثامنة بعد فتح مكة . وقد ألمح الشيخ محمد عبده (المنار ٧/ ٥٠) إلى هذا الرأى وإن لم يأخذ به . والمشهور ما ذهبنا نحن اليه. لأنه — زيادة على ما ذكرنا — يتفق مع طبيعة التدرج التشريعى فى الإسلام .

(٢) المائدة ٩٠ — ٩١

(٣) الكشاف ٢ / ٤١٧

وقال ابن عباس — رضى الله عنها — نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر، وأراد بالسَّكَر الخمر و بالرزق الحسن جميع مايؤكل و يشرب حلالا من هاتين الشجرتين .

وقال ابن العربى : أَسَدُّ هذه الأقوال قول ابن عباس ، ويخرج ذلك على أحد معنيين : إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر، وإما أن يكون المعنى : أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ماحرم الله عليكم اعتداء منكم ، وما أحل لكم اتفاقا أو قصدا إلى منفعة أنفسكم (١) ..

والأقوال السابقة تضعنا أمام ثلاثة آراء :

الأول : أن الآية منسوخة .

والثانى : أن فى الآية لونا من العتاب الصريح إذ يستخرجون من الأعناب والنخيل شرابا مُسْكِرا ، زيادة على مافيها من المنّ عليهم « بالرزق الحسن »

والثالث : أن فى الآية تصويرا لواقع ، فلا نسخ إذن ولا عتاب .

والقول بالنسخ لا دليل عليه ، ولكن الآية تصوير حقيقى لواقع حقيقى ، ووراء هذا التصوير قصد ربانى كريم ، فهو لم يقصد إلا إلى الموازنة بين السكر والثمرات الأخرى التى يصفها بأنها حسنة ، دون أن يصف هذا السكر نفسه ، و بذلك صار لدى المؤمنين دافع إلى الإحساس ببعض التحرج والوسوسة تجاه هذا النوع من الشراب » . (٢)

والنص يلمح الى أن الرزق الحسن غير الخمر، وأن الخمر ليس رزقا حسنا . وفى هذا توطئة لما جاء بعد من تحريمها ، وإنما كان يصف الواقع فى ذلك الوقت من اتخاذهم الخمر من ثمرات النخيل والأعناب ، وليس فيه نص بحلها ، بل فيه توطئة لتحريمها . (٣)

وقد يؤيد هذا التخريج تذييل الآية بقوله تعالى : « إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون » فمثل هذا التلميح البعيد بالموازنة يحتاج الى إعمال العقل والحس البيانى الرفيع لإدراك المقصد الربانى من وراء هذه الكلمات .

٢ — التوطئة بالتصريح المباشر: ثم كانت آية البقرة

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾

والبقرة هى أول سورة مدنية ، و يقال إن سبب نزول هذه الآية .. أن عمر ومعاذا ونفرا

---

(١) القرطبى ٥ / ٣٧٤٤

(٢) دراز : دستور الأخلاق فى القرآن (٨٣)

(٣) قطب : فى ظلال القرآن ٤ / ٢١٨١

من الصحابة قالوا يارسول الله أفتنا فى الخمر فإنها مذهبة للعقل ، مسلبة للمال ، فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون . (١)

وهذا السؤال يدل على أن المسلمين كانوا بفطرتهم ، و بإيحاء آية النحل يشعرون بالحرج فى شربها ، حتى أنه كان هناك من الجاهليين من حرمها على نفسه .

كما يدل هذا السؤال على أن المسلم كان حريصا على استكمال مكارم الأخلاق والالتزام بما أتى به رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والخمر كانت سلعة تجارية فى الجاهلية .. والمدينة كانت غاصة بالحانات .. وكثير من المسلمين كانوا يشربون بل يدمنون الشرب ، ومن هؤلاء : على بن أبى طالب ، وعمر بن الخطاب الذى وصف نفسه بأنه « كان رجل خمر فى الجاهلية » .

وفى الميسر أو القمار كسب .. وهو ــ وإن اشترك مع الخمر فى كونه كسبا ماديا ــ فإنه يختلف عنه فى أن الكسب الذى يحققه طرف يعنى خسارة الطرف الآخر لذلك كان منطق الآية يمثل مرحلة قوية جدا لتهيىء النفوس للتحريم القاطع :

أ ــ فقدم الإثم على المنافع .

ب ــ ووصف الإثم بأنه كبير ، وجعل المنافع غفلا من الوصفية .

جـ ــ ثم حسم الموازنة بأن إثمهما أكبر من نفعهما .

و يرى الفخر الرازى أن الآية تحرم الخمر تحريما قاطعا مستدلا بالأدلة الآتية :

(أ) اشتمال الآية على الإثم ، والإثم حرام لقوله تعالى :

« قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى »

فكان مجموع هاتين الآيتين دليلا على تحريم الخمر.

(ب) أن الإثم قد يراد به العقاب ، وقد يراد به مايستحق به العقاب من الذنوب ، وأيهما كان فلايصح أن يوصف به إلا المحرم .

(جـ) أنه تعالى قال : (وإثمهما أكبر من نفعهما) صرح برجحان الإثم والعقاب وذلك يوجب التحريم (٢) .

و يرفض القرطبى مذهب الفخر الرازى لأن الله لم يسم الخمر إثما فى هذه الآية ، وإنما قال (قل فيهما إثم كبير) ولم يقل « قل هما إثم كبير ... ».وقد قال قتادة : إنما فى هذه الآية

---

(١) الفخر الرازى ٢ / ٢١٧

(٢) الفخر الرازى ٢ / ٢١٩

دم الخمر ، فأما التحريم فيعلم بآية أخرى ، وهى آية المائدة ، وعلى هذا أكثر المفسرين . (١)

ويمكن أن نؤيد مذهب القرطبى والجمهور بدليلين آخرين هما :

(أ) أن الآية لو كان فيها تحريم قاطع لكان الصحابة وبخاصة السائلون هم أسبق الناس إلى هذا الفهم ، ولما تطلعوا بالدعاء الى الله أن « يبين لهم فى الخمر بيانا شافيا » .

(ب) كما أن النبى « صلى الله عليه وسلم » لم يحدّ أو يعزّر مسلما شرب الخمر بعد نزول هذه الآية .

ولكن الآية رجحت جانب الإثم على جانب النفع ـــ كما بينا ـــ لذلك هجرها كثير من المسلمين : وكانت الآية بذلك تمثل الخطوة الثانية للتهيىء النفسى نحو التحريم القاطع الحاسم .

٣ ـــ التحريم الموقوت :

بقوله تعالى فى سورة النساء :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾

ومناسبة نزول هذه الآية ماروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال : **صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما ، فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا ، وحضرت الصلاة فقدمونى فقرأت « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون . ونحن نعبد ماتعبدون » فأنزل الله** سبحانه وتعالى قوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ (٢)

فحرمت الآية ونهت عن أن يأتى المسلم صلاته وهو سكران . والآية هى آخر تمهيد للتحريم القاطع الحاسم ، فإن من يتقى أن يجىء عليه وقت الصلاة وهو سكران يترك الشرب عامة النهار وأول الليل لانتشار الصلوات الخمس فى هذه المدة ، فالوقت الذى يبقى للسكر هو وقت النوم من بعد العشاء إلى السحر ، فيقل الشرب فيه لمزاحمته للنوم الذى لا بد منه ، وأما أول النهار من صلاة الفجر إلى وقت الظهيرة ، فهو وقت العمل والكسب لأكثر الناس ،

---

(١) القرطبى ١ / ٨٦٨

(٢) السيوطى : أسباب النزول ٥٢

و يقل أن يسكر فيه غير المترفين الذين لاعمل لهم . وقد ورد أنهم كانوا بعد نزولها يشربون بعد العشاء فلا يصبحون إلا وقد زال السكر، وصاروا يعلمون مايقولون (١) .

وأمام هذه الصعوبة العملية فى التوفيق بين أوقات الصلاة وفرصة الشرب والسكر.. هذه الصعوبة التى تكاد ترتفع إلى مرتبة الاستحالة .. أمام العجز أو شبه العجز عن هذا التوفيق .. أقلع أغلب المسلمين عن شرب الخمر لأنهم كانوا حريصين على حضور صلاة الجماعة مع النبى عليه السلام،وأصبح التحريم القاطع قاب قوسين أو أدنى ..

٤ ـ التحريم النهائى القاطع :

بين آية البقرة : (يسألونك عن الخمر والميسر ..) وآية النساء : (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ..) قرابة سبع سنين ..

و بعد آية النساء بعام أو بعض عام نزلت آيتا المائدة اللتان تحملان التحريم الحاسم القاطع ، وهذا التوالى بعد هذه الفترة الزمنية القصيرة يدل على أن النفوس كانت قد تهيأت تماما لتلقى هذا التحريم الحاسم فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر و يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) وكانت إجابات المسلمين « انتهينا .. انتهينا » ..

قال أنس بن مالك « إنى لقائم على الحى على عمومتى أسقيهم من فضيخ لهم ، وأنا أصغرهم سنا ، فجاء رجل فقال : إنها قد حرمت « الخمر»، فقالوا اكفئها يا أنس، فكفأتها ». وزيد فى رواية أخرى « فما راجعوها وما سألوا عنها بعد خبر الرجل »(٢) ..

قال أبو ميسرة : نزلت بسبب عمر بن الخطاب فإنه ذكر للنبى صلى الله عليه وسلم عيوب الخمر وماينزل بالناس من أجلها ، ودعا الله فى تحريمها ، وقال : اللهم بيِّن لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت هذه الآيات (٣)..

وقال سعد بن أبى وقاص : نزلت فىّ آيات من القرآن : أتيت على نفر من الأنصار، فقالوا تعال نطعمك ونسقيك خمرا ـ وذلك قبل أن تحرم الخمر قال : فأتيتهم فى حش (بستان) ، فإذا رأس جزور مشوى ، عندهم وزق من الخمر. قال : فأكلت وشربت معهم

---

(٢) المنار: ٥/ ١١٤

(١) مسلم ٤/ ٦٦٤ (كتاب الأشربة) .
(٣) القرطبى ٣/ ٣٢٨٣ . .

قال : فتذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم . فقلت : المهاجرون خير من الأنصار . قال : فأخذ رجل لحيى جمل فضربني به فرج أنفى . فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فنزل قوله تعالى : « **إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابَ .. الخ** »

وقيل إنما نزل تحريم الخمر فى قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا .. فلما ثمل القوم عبث بعضهم ببعض ، فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر فى وجهه ورأسه ولحيته فيقول : صنع بى **هذا أخى فلان — وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن — فيقول : والله لو كان بى رءوفا رحيما ماصنع بى هذا.حتى وقعت الضغائن فى قلوبهم ، فأنزل الله قوله :**

« إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابَ .. الخ »

وليس هناك مايمنع من أن تكون كل هذه الوقائع صحيحة ، وأن تكون كلها قد تتابعت وتوالت لتصنع سببا أو أسبابا لنزول آيتى التحريم القاطع ، فهى جميعا متوافقة ولا تعارض بينها إذ تلتقى جميعا فى إبراز الآثار السيئة للخمر نفسيا وعقليا واجتماعيا .

وجاءت الأحاديث النبوية مؤيدة لهذا التحريم القاطع ، ولَعَن النبى عاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وساقيها و بائعها وآكل ثمنها والمشترى لها والمشتراة له ، كما حرم الإسلام أن تتخذ دواء : فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **إن الله أنزل الداء والدواء ، وجعل لكل داء دواء فتداووا ، ولا تتداووا بالمحرم ..** وقد سئل عليه السلام عن الخمر فى الدواء ، فقال : **إنها داء وليست بالدواء** ، و يروى عنه أنه قال : **من تداوى بالخمرفلا شفاهالله** (٣) . يقول ابن القيم : المعالجة بالمحرمات قبيحة عقلا وشرعا : أما الشرع فما ذكر فى الأحاديث وغيرها ، وأما العقل فهو أن الله سبحانه وتعالى إنما حرمه لخبثه ، فإنه لم يحرم على هذه الأمة طيبا عقوبة لها كما حرمه على بنى اسرائيل بقوله :

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات ما أحل لهم » ..

وإنما حرم على هذه الأمة ماحرم لخبثه ، وتحريمه له حمية لهم وصيانة عن تناوله ، فلا يناسب أن يطلب به الشفاء من الأسقام والعلل ، فإنه وإن أثر فى إزالتها لكنه يعقب سقما أعظم منه فى القلب بقوة الخبث الذى فيه ، فيكون المداوى به قد سعى فى إزالة سقم البدن بسقم

---

(١) السابق : نفس الصفحة .

(٢) أسباب النزول ٧٧ .

(٣) ابن القيم : زاد المعاد ٣/١١٥ .

القلوب . وأيضا فإن تحريمه يقتضى تجنبه والبعد عنه .. وأيضا فإنه داء كما نص صاحب الشريعة فلا يجوز أن يتخذ دواء .. وأيضا فإن إباحة التداوى به ولا سيما إذا كانت النفوس تميل إليه ذريعة إلى تناوله للشهوة واللذة . (١) .

وإذا ماعدنا إلى آيتى المائدة وجدنا أن الله سبحانه وتعالى ـ فى مناقشة قضية الخمر وتحريمها ـ قد قطع قطعا حاسما فى هذا التحريم مخاطبا عقول المكلفين وحسهم الإيمانى فى بيان قوى واضح :

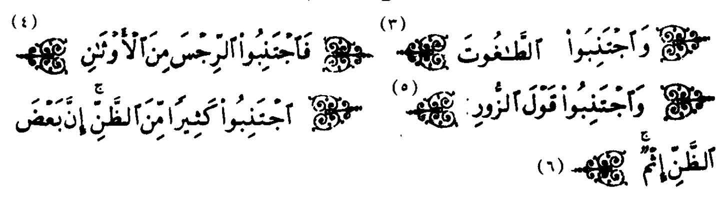
(١) فوجه الخطاب للذين آمنوا .. والإيمان هو أعلى درجات الاعتقاد : فالمؤمنون أقدر من غيرهم على تقدير أوامر الله ونواهيه ..

(ب) قرن الخمر بالأنصاب وهى الأصنام التى تعبد من دون الله، و بالميسر وهو مضيعة للمال ، و بالأزلام واتباعها يلغى الرأى والعقل .. ورَبْط الخمر بكل أولئك يشوّه صورتها ويجعل النفس تصد عنها .

(جـ) وصف الخمر بأنه رجس ، والرجس هو النجاسة والقذر الذى تحرص كل نفس شريفة على أن تتطهر منه .

(د) وجعل هذا الرجس من عمل الشيطان ومَكْره وتزيينه وتهييئه .

(هـ) ودعا إلى اجتنابه . والاجتناب يعطى معنى ـ الابتعاد والاعتزال.(٢) ومادة الاجتناب لم تستخدم فى القرآن إلا مع كل محرم خبيث :


﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (٣) ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ (٤) ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (٥) ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (٦)

---

(١) السابق نفس الصفحة .
(٢) القاموس المحيط مادة جنب (الجزء الأول) .
(٣) النحل ٣٦
(٤) الحج ٣٠
(٥) الج ٣٠
(٦) الحجرات ١٣

و يلاحظ أن الكلمة فى الاستعمال القرآنى لا تتوقف عند دلالتها الوضعية فحسب وهى الابتعاد والانصراف ، بل إن لها دلالتها النفسية وانعكاسها الشعورى كذلك ، و يتلخص فى أن هذا الانصراف والابتعاد يجب أن يكون مصحو با بالكراهية والاقتناع .

من هنا كانت الكلمة فى مكانها من السياق أقوى وأعمق تأثيرا من مادة (الترك) التى لم تستخدم فى القرآن أبدا للنهى عن المحرمات .

(و) و بينت الآية بعد ذلك أن كل أولئك يهيىء الإنسان للفلاح والنجاح .

(ز) وتقدم الآية الثانية حيثيات الأمر بالاجتناب .. **فمن شرور الخمر والميسر :**

ــ غرس العداوة والبغضاء بسبب التشاحن كما حدث فعلا فى الوقائع التى كانت سببا فى نزول الآية ..

ــ الصد عن ذكر الله بعامة ، وعن الصلاة بخاصة .

(ح) **ثم كان الاستفهام التحضيضى أو التهديدى فى النهاية (فهل أنتم منتهون) ؟**

وقد كانت إجابة المسلمين بلسان المقال : انتهينا،و بلسان الحال أيضا : انتهينا انتهينا : فكسروا الدنان ، وأراقوا ماعندهم من خمر ، ولم يبك أحد عليها لأن نفوسهم قد هيئت لذلك تماما على مدى عشر سنوات من الإعداد النفسى ..

مرض عضال استشرى فى نفوس المسلمين وأعصابهم حتى المشاهير منهم ــ كما رأينا ــ من أمثال على بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص استطاع الإسلام بالترو يض التربوى التدريجى أن يستل من أعماقهم جذور هذا الداء عن رضاء واقتناع وتسليم ، والفضل فى ذلك لطريقة العلاج المثلى .

* * *

وتظهر قيمة الأسلوب الإسلامى فى إبطال الخمر وتحريمها : عصرا وشربا وحملا وتجارة وعلاجا .. إذا مانظرنا الى محاولة مشهورة لتحريم الخمر فى أمريكا،وقد أخفقت إخفاقا ذريعا على الرغم من الجهود الجبارة التى بذلتها الدولة فى هذا المجال : فقبل أن يدخل التعديل الثامن عشر على الدستور الأمريكى أقيمت فى البلاد دعاية واسعة النطاق ضد الخمر، و بقيت الرابطة المحاربة لوجود الحانات Anti Saloon League تسعى وتجتهد فى ترغيب الأمريكيين عن الخمر، وتثبيت مضارها بإلقاء الخطب وتأليف الرسائل والكتب وعرض المسرحيات وأفلام السينما ، وأفنت فى سبيل هذا التبليغ عشرات السنين ، و بذلت الأموال ، حتى قدر أن نشرات النشر والإذاعة بلغت تكاليفها من لدن بدء الحركة إلى سنة ١٩٢٥ مبلغ ٦٥ مليون دولار. وأنه بلغ عدد الصفحات التى سود بياضها لبيان مساوىء الخمر والزجر عنها ٩ آلاف مليون صفحة . ذلك قبل بدء التجربة .

وأما ماتحملته الأمة الأمريكية فى الأربعة عشر عاما الماضية من النفقات الباهظة فقدر مجموعها بأربعة ملايين ونصف مليون جنيه .

وتدل الإحصائيات التى أذاعها ديوان القضاء الأمريكى للفترة الواقعة بين يناير ١٩٢٠ واكتوبر ١٩٣٣ .. أنه قتل فى سبيل تنفيذ هذا القانون ٢٠٠ نسمة ، وسجن نصف مليون ، وغرم الجناة مايربو على مليون ونصف مليون جنيه . وصودر من الأملاك مايساوى ٤٠٠ مليون جنيه (١) ..

وكانت النتيجة ــ بعد هذه الإجراءات القوية المتواصلة .. وبعد هذه المعاناة الطويلة .. لا شىء .. مما اضطرت معه الدولة إلى إلغاء القانون إلغاء نهائيا وإباحة الخمر للناس بلاقيود ..

وبالموازنة السريعة بين التشريع الإسلامى والقانون الأمريكى فى تحريم الخمر يتبين لنا عبقرية الإسلام التشريعية ، إذ راعى حدود القدرة الإنسانية ، والطاقة البشرية فى تحمل ماتدعى إليه النفس تدريجيا وعجزها عن تحمل مايفرض عليها طفرة .. ولاعجب .. فالله هو خالق الإنسان .. وهو أعلم بطبيعته ، لذلك أفلح التشريع الإلهى وأخفق القانون الأمريكى الوضعى .

كانت هذه هى **السمة** الأولى من سمات « القيم الإسلامية » وهى التدريج التشريعى . **وسنعرض** فى الصفحات التالية لسمة أخرى جوهرية من سمات هذه القيم وأعنى بها سمة (الوسطية العادلة) ..

•••••

(١) المودودى : نحن والحضارة الغربية ٥٣ .

ثانيا : الوسطية العادلة

جاءت اليهودية الموسوية بعد عهد طويل من الوثنيات الضالة . واليهودية تعتمد فى تشريعاتها على ثلاثة مصادر:

الأول : هو التوراة :

وهى مجموعة الأسفار التى يقال إنه أوحى بها إلى سيدنا موسى ، وكان أول تدوين لأحكام القانون اليهودى تلك الألواح التى أنزلت على موسى على رأس جبل سيناء ، حيث كلمه ربه بعد مناجاة دامت أربعين ليلة . .

الثاني : هو التلمود : وقد صنعه عدد من الأحبار وتم وضعه فى القرن الخامس بعد الميلاد .

والثالث : هو الكتابات الفقهية التى وضعها فقهاء اليهود بعد القرن الخامس الميلادى (١)

والتوراة : وهى التى يطلق عليها العهد القديم ــ حوت كثيرا جدا من القواعد الخلقية والاجتماعية وخاصة سفر الخروج وسفر الأحبار وسفر التثنية . ولنعش قليلا مع بعض هذه النصوص لنتبين طبيعة الأخلاقيات اليهودية النظريـــــة منها :

(١) وكلم الله موسى قائلا : اصنع لك بوقين من فضة مسحولين تعملها فيكونان لك لمناداة الجماعة،ولارتحال المحلات.فإذا ضربوا بها يجتمع إليك الجماعة إلى باب خيمة الاجتماع ، وإذا ضربوا بواحد يجتمع إليك الرؤساء رؤوس ألوف اسرائيل ، وإذا ضربتم هتافا ترتحل المحلات النازلة الى الشرق ، وإذا ضربتم هتافا ثانيا ترتحل المحلات النازلة الى الجنوب ، هتافا يضربون لرحلاتهم . وأما عندما تجمعون الجماعة فتضربون ولاتهتفون ، وبنوهارون الكهنة يضربون بالأبواق فتكون لكم فريضة أبدية فى أجيالكم (٢) .

---

(١) انظر: صوفى أبوطالب : مبادىء تاريخ القانون ١١٤ وانظر كذلك د. أحمد شلبى فى كتابه (اليهودية) ٢٣٧ ــ ٢٧٩ .

ويذهب « موريس موكاى » إلى أن الكتاب المقدس قبل أن يكون مجموعة أسفار كان تراثا شعبيا لا سند له إلا الذاكرة ، وهى العامل الوحيد الذى اعتمد عليه نقل الأفكار، وكان هذا التراث يغنى، ويرى كذلك أن أسفار العهد القديم كتبت على مدى يربو على تسعة قرون وبلغات مختلفة ، واعتمادا على التراث المنقول شفويا ، وقد صححت وأكملت أكثرية هذه الأسفار بسبب أحداث حدثت ، أو بسبب ضرورات خاصة ، وفى عصور متباعدة أحيانا (انظر كتاب : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص ٢٠ ، ٢٣) .

(٢) سفر العدد الإصحاح العاشر (١ ــ ٩) .

(٢) أنا هو الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر: من بيت العبودية: لايكن لك آلهة أخرى أمامى. لا تصنع لك تمثالا منحوتا صورة ما مما فى السماء من فوق، ومافى الأرض من أسفل، ومافى الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن، ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلهك إله غيور (١)..

(٣) حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك.. فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، و يستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإن دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل مافى المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاها الرب إلهك (٢).

(٤) كل إنسان سب أباه أو أمه فإنه يقتل: قد سبّ أباه أو أمه دمه عليه. وإذا زنى رجل مع امرأة: فإذا زنى رجل مع امرأة قريبة فإنه يقتل الزانى والزانية، وإذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه فقد كشف عورة أبيه: إنهما يقتلان كلاهما دمهما عليهما.. وإذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فإنه يقتل والبهيمة تميتونها، وإذا اقتربت امرأة إلى بهيمة لنزائها تميت المرأة والبهيمة.. إنهما يقتلان.. دمهما عليهما (٣)..

ومن هذه النصوص ــ وغيرها كثير جدا ــ نستطيع أن نتبين الطوابع العامة لأوامر العهد القديم ونواهيه وخاصة بالنسبة للأخلاقيات. وأهم هذه الطوابع والسمات:

١ ــ **التنوع**: فنها مايدعو الى وحدانية الله وإفراده وتخصيصه بالعبادة دون إشراك. وبعضها خاص بالمطعومات والمشروبات مايحل منها ومايحرم، وبعضها يتعلق بقواعد الحرب، وبعضها يتناول الأحوال الشخصية من زواج وطلاق، ومنها مايحدد عقوبات الجرائم على اختلاف أنواعها.. الخ..

٢ ــ **التفصيل الشديد**: بصورة تدعو إلى العجب كما نرى فى النص الأول (٤)..

---

(١) سفر التثنية ٥/٦ــ ٩..
(٢) سفر التثنية ٢٠/١٠ــ ١٥..
(٣) سفر اللاويين ٢٠/٩ــ ١٦..

(٤) راجع مثلا الإصحاح ٢٥ من سفر الخروج وفيه يذكر الرب المواصفات الدقيقة والجزئيات الصغيرة جدا لتابوت العهد وللمائدة وملابس هارون الكهنوتية ولم تترك هذه التفصيلات صغيرة ولا كبيرة تتعلق بهذه الأشياء.

٣ ــ **القوة والصرامة** فى الحروب والعقاب والجزاءات :

فالإله يأمر كقائد حربى وكملك صارم يجب أن يطاع لأنه الإله . والطريقة الوحيدة لاكتساب عطفه ولاجتناب غضبه ليست إلا الخضوع له . والعهد القديم يشمل الشريعة ، وليست الفضيلة إلا فهمها وتطبيقها فى كل حالة تعرض ، والتزامها بنظام وخضوع (١) ..

والذى يقرأ العهد القديم يخيل إليه أن موسى وتلاميذه لم يعرفوا أمرا من الأمور، ولم يقفوا على مسألة من المسائل حتى الصغير التافه إلا بعد الرجوع الى « يهوه » ، فكل نزاع ينشب كان يعرض على نبى أو حكيم من أنبياء أو حكماء بنى اسرائل وكان على ذلك الوسيط أن يعرض النزاع على الإله ثم يعرض حكمه على المتخاصمين . ورغم أن استطلاع رأى الإله كان يتم بعيدا عن أعين المتخاصمين إلا أنه كان يتخذ بعض المظاهر المادية التى تدل على وجوده . من ذلك ماجاء فى سفر الخروج خاصا ببيان كيف كان موسى عليه السلام يتلقى الوحى . فحينما يطلب إليه أحد الرأى فى أمر معين كان يدخل خيمة تسمى خيمة الوحى، و بعد دخوله كان يلاحظ ظهور سحب كثيرة على باب الخيمة ، هذه السحب كانت تمثل « يهوه » فى نظر بنى اسرائيل ، و بعد ذلك يخرج النبى موسى من خيمته ، و ينطق بالحكم الذى نزل عليه (٢) .

ولكن طال الأمد على اليهودية واليهود فحدث انفصام واسع بين الشرع الإلهى و بنى إسرائيل ، وظهر على القيم اليهودية بصمات وثنية لا أخلاقية ، صور القرآن كثيرا منها ، وتحجرت الديانة اليهودية واستحالت طقوسا جامدة لاحياة فيها ، ومظاهر خاوية لاروح فيها (٣) ..

• • • • •

ثم جاء السيد المسيح ليهدى ـ كما قال ـ: « خراف إسرائيل الضالة » والذين كان يخاطبهم فى كثير من الأحيان « بأبناء الأفاعى ».وكانت المسيحية ديانة مرحلية تصدت للاتجاه المادى لليهود وإغراقهم فى حب المال والحياة ، وأكل السحت والربا وأموال اليتامى والتمادى فى الباطل وشهادة الزور والغش فى التجارة حيث كان « حب المادة وعبادة المال » مفتاح شخصية اليهودى .

---

(١) اندريه كرسون : المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ٧٦

(٢) انظر: أبوطالب السابق ١١٣

(٣) المرحوم سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الإسلام ص٦ . وراجع د. شلبى فى (اليهودية) ص ٢٧٥ . ومن أغرب مادخل اليهودية من انحراف وتحجر ماتقرؤه فى التلمود من نفى العصمة عن الله ونسبة الخطأ والخطيئة إليه ..

وجاءت الديانة الجديدة بقائمة من « القيم الروحية » الخالصة ليقنعَ الإنسان ــ بعد أن استغرقته مادية الحياة ــ أن حياته المثلى ليست هنا ... ولكنها هناك فى ملكوت السماء ..

وخلوصاً إلى هذا الملكوت كانت « الرهبانية » المتجردة هى الاختيار المسيحى للشخصية المسيحيه ، وليترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله . وكانت « أخلاقيات » المسيحية التى دعا إليها المسيح هى قمة التجرد الذى لم تشهد له الأرض مثيلا ، والذى كان رد فعل طبيعى « لماديات » اليهودية واليهود ، ولإقبالهم على متعها وعبّهم من لذائذها .

يقول السيد المسيح : « لقد سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تزن .. أما أنا فأقول لكم : إن كل من ينظر إلى إمرأة يشتهيها فقد زنى بها قلبه ، فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولايلقى جسدك كله فى جهنم ، وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولايلقى جسمك كله فى جهنم .

وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق ، وأما أنا فأقول لكم : إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى ، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى .

أيضا سمعتم أنه قيل للقدماء : لاتحنث بل أوف للرب أقسامك ، وأما أنا فأقول لكم : لاتحلفوا البتة .. لا بالسماء لأنها كرسى الله ، ولا بالأرض لأنها موطىء قدميه ، ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم ، ولاتحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء ، بل ليكن كلامكم نعم نعم ، لا لا ، ومازاد على ذلك فهو من الشرير ..

سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك و يأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخَّرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين ، ومن سألك فاعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده .

سمعتم أنه قيل تحب قريبك ، وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم و يطردونكم (١) .

ومع أنه ــ عليه السلام ــ أعلن أنه لم يجىء لينقض الناموس أو الأنبياء بل جاء ليكمل (٢) .. إلا أنه رفض أن يرجم الزانية كما كان متبعا فى الشريعة الموسوية قائلا : « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » .

(١ إنجيل متى : الإصحاح الخامس ٢٧ ــ ٤٤ .

(٢) انظر : متى ٥/١٧ .

ورفض — عليه السلام — استخدام القوة حتى دفاعا عن الدين والحق : فحينما غدر به يهوذا الأسخر يوطى ، وجاء معه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب للقبض عليه ومحاكمته استل بطرس أحد حواريي المسيح سيفه للدفاع عنه وضرب به عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه . فقال له يسوع : « رد سيفك إلى مكانه ، لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » (١) .

إنها في مجموعها قيم روحية خالصة تنزع الإنسان من غمرات الواقع المادى الخسيس وتسمو بروحه ، فهو لم يخلق لهذه الأرض ، ولكنه خلق « لملكوت السماء » . وكانت دعوة المسيح عليه السلام — كما ذكرنا من قبل — إلى الزهادة في الدنيا والابتعاد عن أسباب النزاع ، والوقوف على الحياة الروحية ، لأن اليهود الذين جاء المسيح مبشرا بهذه الديانة بينهم كان يغلب عليهم النزعات المادية ، وكان منهم من يفهم أن الحياة الدنيا هي غاية بني الإنسان . بل إن التوراة التي بأيديهم خلت من ذكر اليوم الآخر ونعيمه أو جحيمه ، ومن فرقهم من كان يعتقد أن عقاب الله الذي أوعد به العاصين وثوابه الذي وعد به المتقين إنما زمانه في الدنيا لا في الآخرة(٢)

• • • • •

وبعد فترة طويلة من الرسل تقرب من ستة قرون بعث الله محمدا عليه السلام خاتما للرسل والأنبياء ، وجاء الإسلام الحنيف خاتما للأديان ، ونزل القرآن على محمد فكان آخر اتصال بين السماء والأرض .

وهذه الخاتمية في الدين والكتاب والنبوة اقتضت أن تقدم السماء للأرض أنجح الحلول وأقدرها وأشملها ، حيث لا دين ولا كتاب ولا نبي بعد . ولم يفارق محمد — عليه السلام — الدنيا إلا بعد أن أعلن بصوت الله « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا » .

لقد رأينا مادية اليهودية ، وإيغال اليهود في « الأرضية والدنيوية » وهو اتجاه مرحلي قد يكون صحيحا في وقت عاش فيه اليهود يجابهون أخطارا لاتحصى ابتداء من اضطهاد فرعون مصر ومطاردته لهم .

ورأينا « الروحانية المثالية الخالصة » التي تقدم بها السيد المسيح في عصر الماديات والمال والسحت،فكان ذلك رد فعل طبيعي لاتجاه اليهودية واليهود . ولكنه اتجاه مرحلي أيضا لايمكن أن تعيش عليه البشرية إلى الأبد . وإن صح أن يكون علاجا ما لحالات معينة في وقت معين .

---

(١) متى ٢٦ / ٥٣ ..

(٢) راجع : محاضرات في النصرانية للشيخ أبي زهرة ١٠ .

والوجود لايمكن أن يتنفس برئة المادية البحت فى معزل عن القيم والمثل العليا ، وإلا تحولت المجتمعات البشرية إلى مجموعة من الغابات تسيطر عليها قوة المخالب والأنياب ، و يكون الصراع الدامى المتسعر وسيلتها المثلى للوجود والبقاء ، و يكون الشعار المعتنق البقاء للأقوى .. لا للأصلح .

كما أن الوجود لايمكن ان يتنفس كذلك برئة المثالية المعنوية البحت : تجردية كاملة من ماديات الحياة .. ورهبانية مستغرقة فى ملكوت الله مُنبتة عن واقع الحياة ومعاناتها فى دنيا الناس .

وأمام هاتين « اللاإمكانيتين » .. أمام آخر فرصة للإنسان فى اتصاله بالسماء كان لابد من وضع ضوابط جديدة وقيم جديدة أمام إنسان القرن السابع الميلادى (١) . وهذه القيم تمثل أقوى الحلقات وأخلدها فى سلسلة البناء الإنسانى . وألفت نظر القارىء الى حقيقة مهمة وهى أن الإسلام لايقلل من شأن القيم اليهودية والمسيحية ــ بالنسبة لكثير جدا منها وخاصة مايتعلق بجواهر الأمور:

(أ) لأنها قيم ربانية من عند الله .

(ب) لأنها كانت أرقى القيم وأكملها فى عصرها .

(جـ) وأخيرا لأن المسلم مطالب بالإيمان بها . ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾(٢) وقد وصف الله ــ سبحانه وتعالى ــ المتقين بأنهم ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ ﴾(٣)

---

(١) ولد محمد ــ عليه السلام ــ سنة ٥٧١م ونزل عليه الوحى وهو فى سن الــ ٤٠ على أرجح الأقوال .

(٢) البقرة ٢٨٥ ..

(٣) البقرة ٣و٤ .

وأخص من ذلك وأدل ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (١)

ففى هذه الآية الكريمة تصريح بأن التوراة يحكم بها النبيون ومن ضمنهم محمد عليه السلام . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم يهوديا زانيا اعتمادا على حكم التوراة ، وقيل بل رجم يهوديين عند باب مسجده وذلك أول رجم كان فى الإسلام (٢) .

وقد أقرت الشريعة الاسلامية صراحة أحكاما وردت فى الشرائع السابقة مثل الصوم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣)

وتنص السنة النبوية على أن الأضحية مشروعة فى ملّتنا كما كانت مشروعة فى ملّة ابراهيم ــ عليه السلام ــ وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ **« ضحوا فإنها سنة أبيكم ابراهيم عليه السلام »** .

وقد نسخت الشريعة الإسلامية عدة أحكام كانت فى الشرائع السابقة ، ونحن ملتزمون بالابتعاد عنها .

كما أنها ذكرت أحكاما وسكتت عنها ــ دون إقرار أو رفض ــ والأرجح عند الفقهاء مشروعيتها بالنسبة لنا . كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (٤)

(١) المائدة ٤٤ . أسلموا : انقادوا لحكم ربهم . الربانيون : عباد اليهود . الأحبار: علماء اليهود .

(٢) انظر ابن تيمية : السياسة الشرعية ١٢٢ والبخارى ٩/١٢٩ كتاب الاعتصام .

(٣) البقرة ١٨٣ .

(٤) المائدة ٤٥ (وانظر حسب الله : أصول التشريع الإسلامى ٩٥ــ ٩٧ .. وانظر كذلك : البرديسى : أصول الفقه ٣٤٣ــ٣٤٧) .

والرأى الأخير يتفق مع سماحة الإسلام ومرونته وخاتميته ، و يتفق مع المقولة الإسلامية الخالدة « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهى له » وقد ذكرنا أكثر من مرة أن النبى — صلى الله عليه وسلم — أشاد بحلف جاهلى هو حلف الفضول ، وأعلن أنه لودعى به فى الإسلام لأجاب .

ولكن — على الرغم من أننا مأمورون بالإيمان بقيم المسيحية واليهودية التى لا تتعارض مع إسلامنا ولم تنسخ به — أقول على الرغم من ذلك لم تعد القيم اليهودية بماديتها أو القيم المسيحية بروحانيتها قادرة على تشكيل الإنسان المتفاعل مع الحياة بعد أن تخطت البشر ية مرحلة طفولتها الأمية .

إنسان اليهودية .. أرضى ترابى مادى يتعامل مع الآخر ين بمنطق القوة والحساب المادى فى سبيل تحقيق النفع العاجل على المستو يين الفردى والجماعى ، حتى جزاؤه أرضى ، والآخرة .. ملكوت الله لم تذكر فى التوراة مرة واحدة .

وإنسان المسيحية يحمل قائمة من القيم الملائكية:سمو.. سمو روحى محلق وزهادة فى دنيا الناس .. فالهدف ليس هنا ، والغاية المنشودة ليست فى الأرض ، ولكنها هناك فى ملكوت السماء .

وانتهى الحال بإنسان اليهودية إلى عبادة المادة من دون الله .

وانتهى الحال بإنسان المسيحية إلى الاصطدام بالفطرة الإنسانية التى من مسلماتها أنه « بالروحانيات والمثل فقط لايعيش إنسان .. تماما كما أنه بالمادة فقط لايحيا البشر » ..

من هنا كان لابد من مفهوم جديد للإنسان الذى يدب على الأرض و يعمر هذا الوجود وكان نسيج الإنسان من المنظور الإسلامى « مادة وروحا يشكلان مخلوقا حيا أكرمه الله بنعمة العقل » وهو تعر يف يخرج الجماد لأنه مادة بلا روح و بلا عقل .. ويخرج الحيوان لأنه مادة وروح بلا عقل .. فكان العقل هو قمة التكريم للبشر ابتداء من الإنسان الأول :

لقد خلقه الله من « مادة » الطين ونفخ فيه من « روحه » وكرمه « بالعقل » الذى وعى حقيقة الأشياء اسما ومسمى ... والعقل هو الذى كفل له أن يكون « خليفة » الله فى أرضه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ (١)

هذه هي قصة آدم عليه السلام في القرآن ، هي قصة الإنسان الأول : خلق من تراب ، وارتقى بالخلق السوى إلى منزلة العقل والإرادة ، وتعلّم من الأسماء فضلا من العلم ، ميزه على خلائق الأرض من ذى حياة ، وغير ذى حياة ، وقضى له أن يكسب فضله بجهده ، وأن يكون جهده غلبة لإرادته وانتصارا لعقله على جسده (٢) . .

ولكن لنترك قصة آدم عليه السلام ــ بما فيها من « خصوصيات » ــ وقفها الله عليه في الخلق ولم تتكرر مع غيره ، لننظر الى « الانسان البشر » في كل زمان ومكان لنرى تكريم الله له بالحواس ــ لا لذاتها ــ ولكن بقدر ماتوصل صاحبها إلى طريق الفهم والاهتداء والتقوى والصلاح .

(٣)
﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾

وبالنظر العاقل والمنطق المبين يعيش الإنسان ويهتدى ويبدع ، نعم: لقد جعل له من الحواس مايهديه في عالم المحسوسات : جعل له عينين على هذا القدر من الدقة في تركيبها وفي قدرتها على الإبصار وميزه بالنطق وأعطاه أداته المحكمة لسانا وشفتين،ثم أودع في نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر والهدى والضلال والحق والباطل : وهديناه النجدين ليختار أيها شاء ، ففي طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أى النجدين (٤) .

وإذا لم تستطع الحواس أن ترتفع بالحقيقة الإنسانية في نفس الإنسان ، وتكون وسائل « لتحصيل العلم » والوصول إلى اليقين والهدى والإيمان فوجودها كعدمها سواء . بل إن الإنسان في هذه الحالة يكون أحط مكانة من البهائم لأن البهائم تستخدم حواسها بأقصى طاقاتها حفاظا على بقائها ، أما هو فقد عطل حواسه التي أنعم الله بها عليه لاستعمالها

---

(١) البقرة ٣٠ ــ ٣٣ . يسفك الدماء : يريقها عدوانا . نسبح : ننزهك عن كل سوء ونقيضه.نقدس لك : نطهر لك ذكرك عما لا يليق بك .

(٢) العقاد : الإنسان في القرآن الكريم ص ٦٦

(٣) البلد : ٨ ــ ١٠

(٤) قطب : ٦ / ٣٩١٠

كصاحب رسالة كرمه الله باستخلافه عنه فى الأرض ، وماقيمة العقل إذا ماعطلت طاقته عن الخير؟ وماقيمة العين إذا لم تبصر طريق الهدى؟ وماقيمة الأذن إذا لم تصغ لصوت الحق واليقين؟ ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم ءاذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ (١)

وفى كتب الأديان الكبرى إشارات صريحة أو مضمونة إلى العقل أو إلى التميز ولكنها تأتى عرضا غير مقصودة ، وقد يلمح فيها القارىء بعض الأحايين شيئا من الزراية بالعقل أو التحذير منه لأنه مزلة العقائد و باب من أبواب الدعوى والإنكار.

ولكن القرآن الكريم لايذكر العقل إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه . ولا تأتى الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة فى سياق الآية ، بل هى تأتى فى كل **موضع** من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة . وتكرر فى كل معرض من معارض الأمر والنهى التى يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله ، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه . ولا يأتى تكرار **الإشارة** إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التى يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة ، بل هى تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها ، وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص فى مواطن الخطاب ومناسباته ، فلا ينحصر خطاب العقل فى العقل الوازع ، ولا فى العقل المدرك ، ولا فى **العقل الذى يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح بل يعم الخطاب فى الآيات القرآنية** كل مايتسع له الذهن الإنسانى من خاصة أو وظيفة وهى كثيرة ... إذ هى جميعا مما يمكن أن يحيط به العقل الوازع والعقل المدرك والعقل المفكر الذى يتولى الموازنة والحكم على المعانى والأشياء(٢)..

وبهذا المفهوم الشامل للعقل دعا الإسلام إلى النظر وإلى التفكير والتأمل ، ونعى على الذين لايفكرون ولا يتأملون خلق الله ولا يعملون عقولهم خلوصا الى اليقين : .

﴿وفى الأرض ءايات للموقنين ۝ وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾ (٣)

---

(١) الأعراف ١٧٩ . ذرأنا : خلقنا وأوجدنا

(٢) العقاد : التفكير فريضة اسلامية .

(٣) الذاريات ٢٠ — ٢١

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (٢)

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ... مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (٣)

وفى عشرات من الآيات القرآنية بل فى مئات منها تتكرر لفظة (العقل) وما ارتبط بها من ألفاظ الفقه والعلم والتفكير على النحو التالى :

(أ) (عقل) ومشتقاتها (عقلوه ـ تعقلون ـ تعقل .... الخ) .. ذكرت ٤٨ مرة .

(ب) (علم) ومشتقاتها (علم ـ يعلم ـ يعلمون ..... الخ) ذكرت ٨٦٦ مرة .

(جـ) (فقه) ومشتقاتها (تفقهون ـ تفقه ـ يفقهوا ـ يفقهوه ..الخ) .. ذكرت ٢٠ مرة .

(د) (فكر) ومشتقاتها (فكر ـ تتفكروا ـ يتفكرون .... الخ) ذكرت ١٨ مرة ..

(هـ) (قرأ) ومشتقاتها (قرأ ـ اقرأ ـ قرآن ... الخ) ذكرت ٨٧ مرة ..

(و) (وعى) ومشتقاتها (تعيها ـ أوعى ـ واعية ... الخ) .. ذكرت ٤ مرات .

ومجموع هذه « المواد » التى ذكرتها ثلاث وأربعون وألف لفظة وكلها تدور على تقدير القرآن للعقل والنظر والتفكير .

والمواد التى عرضناها هى المواد المباشرة . وهناك مئات من الألفاظ تدور حول العقل والتفكير بصورة غير مباشرة لم نعرض لها .

هذا هو عنصر العقل فى الإنسان : موقف القرآن منه ، والطريقة المثلى لإشباعه من منطق الإيمان والتفكير فى خلق الله ، وتحصيل العلم واستغلال قدراته وطاقاته فى البناء والإبداع .

● ● ● ●

---

(١) الاعراف ١٨٥

(٢) الروم ٨

(٣) سبأ ٤٦ . جِنَّة : جنون

وثانى الثالوث فى النسيج البشرى هو الجسد ... والجسد هو الكيان المادى الذى بني على الغرائز: غريزة حب البقاء .. غريزة التملك .. **غريزة الوالدية ..غريزة المقاتلة..** الغريزة الجنسية ... الخ .. والغريزة هى العنصر المشترك بين أفراد النوع الواحد وهى ميل فطرى يدفع الكائن الحى إلى العمل فى اتجاه معين تحت ضغط حاجاته الحيوية وهى بطبيعتها تتطلع إلى الإشباع .

وأغلب هذه الغرائز تدور حول حاجتين : حاجة الفم أو البطن للطعام والشراب ، وحاجة الجنس لكسر الشهوة وهو طريق لحفظ النوع .

والإسلام لم ينكر مكان هاتين الشهوتين أو الحاجتين فى النفس الإنسانية ..

١ــ فحل المشكلة الأولى بإباحة الطعام والشراب من طيبات مارزق الله اعتمادا على العمل الشريف ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(١)

والعمل يجب أن يكون حلالا : حلالا فى مادته و بضاعته : فلا عمل مشروعا بالاتجار فى الخمر أو لحم الخنزير أو أعراض الناس . كما يجب أن يكون حلالا فى كيفية التكسب من ورائه : فلا غش ولا استغلال ولا ربا ولا كذب «

﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ (٢)

فاذا ماكان بالمؤمن عجز أو فاقه فهناك التكافل الاجتماعى بأروع صوره، ومن مظاهره الزكاة والصدقة .

٢ــ وحل المشكلة الثانية بالزواج : فالزواج هو الحل الجذرى لمشكلة **الجنس . وكان الزواج فى** المجتمع الإسلامى الأول ــ حيث حسنت النوايا وطهرت القلوب وسمت الأخلاق ــ أمرا ميسرا لم تدخله تعقيدات المدنية وفلسفاتها المتعفنة .

فإذا ماعجز المسلم عن الزواج لسبب ما فهناك إعلاء الغريزة أو السمو بها بالعبادة والصوم على حد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » (٣) ..**

● ● ● ●

والروح هى العنصر الثالث الذى يستكمل به البناء الإنسانى بعد العقل والجسد .. إنها الطاقة الغيبية الخفية الحية التى تعتبر بالإجماع سر حياة الكائن البشرى ، بل سر حياة كل

(١) التوبة ١٠٥ .

(٢) البقرة ٢٧٥ .

(٣) البخارى ٣/٧ (باب النكاح) . وجاء (بكسر الواو) أى كاسر للشهوة ..

كـائـن حـى .. ومـهـا قـال الـعـلـماء فيها أثناء الحياة و بعد الموت فهى مازالت سرا غامضا .. وستبقى سرا غامضا لأن الله سبحانه وتعالى اختص نفسه بها ..

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ (١)

وكما أن إشباع العقل يكون بالعلم والاختراع والكشوف .

وكما أن إشباع حاجتى البطن والفرج يكون بالطعام والشراب والزواج .

كان لابد من إشباع الروح حتى لايختل توازن هذا الثالوث الإنسانى . وإشباع الروح فى الإسلام لم يأت على حساب العقل والجسد ، ولكنه أتى ليأخذ مكانه فى حيزه المعَدّ له فلايختل البناء الإنسانى ويميل الميزان لغير صالح الفرد وغير صالح الجماعة .

فكما دعا القرآن إلى النظر والتأمل وإعمال العقل :

وكما دعا إلى التمتع بطيبات الحياة من طعام وشراب وز ينة .

أمرنا الله كذلك بأن نغرس فى نفوسنا الإيمان بالله ، وأن نحيى أرواحنا بالثقة : الثقة بالله والثقة بالدين والثقة بالنفس إلى أبعد مدى . يقول الله سبحانه وتعالى

﴿ لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ (٢)

وهـذه الـكـلـمـات الـعـلـو يـة الموجزة تجمع بين النوعين من الإشباع : إشباع الحاجات المادية ، وإشباع الحاجات النفسية أو الروحية .

إشـبـاع الحاجات المادية مثلت له الآيات بالإطعام من الجوع . والإطعام هنا مذكور على سـبـيـل الـتـمـثـيل لا الحصر ، فالآية تتسع لنعمة الله فى إشباع كل الحاجات المادية الأخرى : كـحـاجـة الإنـسـان للرى من عطش والزواج لحفظ النوع ، والحماية من الحر والبرد بالملبس والـسـكـن . وهو تفسير يؤ يده واقع هذا الإنعام من الله ــ سبحانه وتعالى ــ على عباده مؤمنهم وكافرهم ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (٣)

أمـا إشـبـاع الحاجات المعنو ية أو النفسية فقد مثلت له الآية بالتأمين من الخوف . وهى نـعـمـة كسابقتها مذكورة على سبيل التمثيل لا الحصر . والخوف هو آفة المشاعر النفسية كلها ،

---

(١) الإسراء ٨٥ .

(٢) سورة قريش (١ ــ ٤) . لإيلاف قريش : لجعلهم آلفين الرحلتين : رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام .

(٣) ابراهيم ٣٤ .

والخائف المفزوع لايهنأ له طعام ، ولا يلذ له شراب ، ولا يسعد بملبس أو مسكن (١) ..

ولكن كيف يأمن الإنسان من الخوف ؟ وكيف يتأتى له أن يكون قوى الروح صلب النفس ؟ إن أصل كل أولئك، ومفتاحه فى « عبادة رب هذا البيت » .. فى الإيمان العميق .. العميق بالله سبحانه وتعالى .. بحيث يصير المؤمن من فئة ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (٢)

إن قمة الإيمان بالله ، هى نفسها قمة العبودية له ، هى نفسها قمة العزة أمام البشر ، هى نفسها قمة النصر والغلبة على كل من يتصدى للمؤمنين .

نعم : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حسب ولا كفاية إلا لله و بالله ، وعلى ذلك الاختصاص .. اختصاص الله بالحسب والكفاية ، كان استعمال الكلمة فى المعجم القرآنى :

﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾ (٣)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤)

﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ (٥)

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (٦)

والإيمان بالله لايمنح المؤمن شجاعة وقدرة فحسب ، ولكنه يمنحه الطمأنينة والقرار

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٧)

---

(١) يقول العلامة ول . ديورانت فى كتابه (قصة الحضارة ١ / ٤) والحضارة تبدأ حيث ينتهى الاضطراب والقلق ، لأنه إذا أمن الإنسان من الخوف تحررت فى نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع و بعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضى فى طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها جـ (١) ص (٤) .

(٢) آل عمران ١٧٣ .

(٣) الأنفال ٦٢ .

(٤) الأنفال — ٦٤ : واتساقا مع المنهج القرآنى فى قصر الحَسْب والكفاية على الله سبحانه يكون المعنى (حسبك الله وحسب من معك من المؤمنين) خلافا لمن ذهب إلى القول بأن المقصود (الله والمؤمنون هم حسبك) ولابن القيم بحث لطيف فى الآية (انظر زاد المعاد) ١/٦ ..

(٥) التوبة ٥٩ (٦) الطلاق ٣ (٧) الرعد ٢٨

واطمئنان القلب لذكر الله ليس حصيلة روحية فحسب ، ولكنه حصيلة منطقية أيضا . فما ذكر الله ؟ إنه استشعار وجود الله فى النفس والضمير والوجدان ، فى الصلاة والصيام والقيام واليقظة والمنام والمنشط والمكره والسراء والضراء .. إنه يشمل كل هذه الأعمال والمواقف (١) . والله هو القوى المتعال ، وهو القوى القهار الجبار .. وهو نعم المولى ونعم النصير .

وذكر المؤمن لله يعنى استشعاره لله سبحانه بكل هذه الصفات التى تتضاءل امامها كل قوى البشر ... من هنا تأتى الطمأنينة نتيجة منطقية لهذا الشعور الإيمانى ، فالإنسان بالإيمان سانـد ظهره إلى جدار من السموات والأرض مُحْتَمٍ بقوانينها ، سائر دائما فى صف جندهما ، شاعر أنه قوة خادمة للإلهية ، عاملة للتعمير وإقرار الحياة فيها ، فاهم أنه قيوم صغير نائب عن القيوم الأكبر تتجدد فيه الحياة ، و يتدفق فيضها المستمر الذى يحيا به مع كل الحيوات » (٢) .

والإيمان بالله يمنح الروح طاقة قادرة على الصمود أمام كوارث الحياة ، وهو فى حالتى احتمالها و وقوعها ثابت لايهتز، قوى لايقهر. ولايتقهقر، لأن من مقتضيات الإيمان التسليم قولا وعملا بقاعدة أزلية ربانية هى ﴿ لَن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ (٣)

والإيمان بالله يعطى المؤمن ــ كما ألمحنا ــ ثقة بالنفس واعتزازا بها واستعلاء على صغار الحياة وصغائر الأحياء ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) والمؤمن بالله لايعرف المهانة والذلة ولايستسلم للضعف والحزن ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٥)

والإيمان بالله بلوازمه ومقتضياته العملية فى القول والفعل هو معيار الأفضلية بالنسبة للفرد ، ومعيار الأفضلية بالنسبة للأمة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (٦)

●●●●●●

---

(١) قد يؤيد هذا التفسير أن الله سبحانه وتعالى فرق بين الصلاة وذِكْره فى قوله « و يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة » فذكر الله أعم وأشمل من الصلاة وهى جاءت بعده من قبيل ذكر الخاص بعد العام لتعظيم هذا الخاص و بيان أهميته .

(٢) عبد المنعم خلاف : العقل المؤمن ١٢٨

(٣) التوبة ٥١

(٤) المنافقون ٨ .

(٥) آل عمران ١٣٩ .

(٦) آل عمران ١١٠ ..

العقل والروح والجسد .. هى النسيج المادى والمعنوى للإنسان الذى كرّمه الله على سائر المخلوقات وجعله خليفته فى الأرض ، فمن حقه بل عليه أن يأكل و يشرب و يتزين و يتزوج **« يا أيُّها الذين آمنوا كُلُوا من طيبات ما رزقْناكم »** (١) . حتى الأنبياء الذين أكرمهم الله برسالته امرهم الله بما أمر به المؤمنين ، فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ (٢)

ومن حقه ــ بل عليه ــ أن يستخدم عقله فى تعامله مع مجتمعه وتعامله مع الطبيعة وتعامله مع نفسه ، والعلم هدف يجب أن يحرص عليه ، والعلم وسيلة يجب أن يتخذها لبناء نفسه و بناء مجتمعه والعمل لصالح المسلمين ..

ومن حقه ــ بل عليه ــ أن يحرص على المثل العليا والقيم الأخلاقية الراقية وأن يحرص على الالتزام بالفرائض والعبادات ..

والطابع العام أو الضابط المهيمن على هذه العناصر الثلاثة العقل والروح والجسد الضابط الذى يحقق « الاتساق » أو « الهرمونية » بينها هو الاعتدال فى المشاعر والأقوال والأفعال .. هو الوسطية العادلة بلا إفراط أو تفريط .. بلا إسراف أو تقصير .. وهذا ما نص عليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (٣)

يقول الإمام محمد عبده « الوسط هو العدل والخيار ، وذلك أن الزيادة على المطلوب فى الأمر إفراط ، والنقص عنه تفريط وتقصير ، وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة ، فهو شر ومذموم ، فالخيار هو الوسط بين طرفى الأمر أى المتوسط بينهما، والمسلمون خيار وعدول لأنهم وسط ليسوا من أرباب الغلو فى الدين المُفْرِطين ولا من أرباب التعطيل المفرّطين ، فهم كذلك فى العقائد والأخلاق والأعمال .

ذلك أن الناس كانوا قبل ظهور الإسلام على قسمين : قسم تقضى عليه تقاليده بالمادية المحضة فلاهم له إلا الحظوظ الجسدية كاليهود والمشركين ، وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة وترك الدنيا ومافيها من اللذات الجسمانية كالنصارى والصابئين وطوائف من وثنى الهند أصحاب الرياضيات .

---

(١) البقرة ١٧٢ .

(٢) المؤمنون ٥١ .

(٤) البقرة ١٤٣ . ومن أبلغ الكلم فى « وسطية الإسلام » قول الإمام على كرم الله وجهه « .. اليمين والشمال مضلة ، والطريق الوسطى هى الجادة ، عليها باقى الكتاب وآثار النبوة ، ومنها منفذ السنة ، واليها مصير العاقبة . هلك من ادعى ، وخاب من افترى ... » نهج البلاغة ٤٣ .

وأما الأمة الإسلامية فقد جمع الله لها فى دينها بين الحقين : حق الروح وحق الجسد فهى روحانية جثمانية ، وإن شئت قلت إنه أعطاها جميع حقوق الإنسان ، فإن الإنسان جسم وروح ... حيوان وملك (١) ..

ومن منطلق هذه الوسطية الأخلاقية نهى القرآن عن البخل لأنه تفريط فى حق النفس وحقوق الآخرين ، كما نهى عن التبذير لأنه إفراط وإسراف فى الإنفاق يؤدى الى الخراب ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (٢)

وهذه الوسطية العادلة صفة من أهم صفات المؤمنين ... عباد الرحمن .....

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (٣)

وفى الصلاة كذلك ؟

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ (٤)

والمسلم مطالب بالاعتدال فى العاطفة حبا وكراهية فلا يغلو فى الحب ولا يسرف فى الكراهية ، عملا بقول رسول الله عليه الصلاة والسلام « **أحبب أخاك هونا ما عسى أن يكون عدوك يوما ما ، واكره عدوك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما** » .

والمسلم مطالب بالتوفيق بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، بين مطالب الآخرة ومطالب الدنيا ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (٥)

••••

ولكن هل كان النبى صلى الله عليه وسلم يأخذ نفسه بهذه القاعدة : قاعدة الوسطية العادلة فى هذه **الأمور**؟

فى حديث للمغيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى حتى انتفخت قدماه. وفى رواية أخرى أنه كان يصلى حتى تَرِمَ قدماه . فقيل له أتكلف هذا وقد غفر لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟

---

(١) المنار ٢/٤ .
(٢) الإسراء ٢٩ .
(٣) الفرقان ٦٧ ..
(٤) الإسراء ١١٠ ..
(٥) القصص ٧٧ ..

— وقالت عائشة — رضى الله عنها — كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ديمه ، وأيكم يطيق ماكان يطيق ؟

— وقالت : كان يصوم حتى نقول : لايفطر ، و يفطر حتى نقول : لايصوم (*) .

— وعن عوف بن مالك — رضى الله عنه — كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن ثم توضأ ، ثم قام يصلى فقمت معه ، فبدأ فاستفتح البقرة : فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ ، ثم ركع بقدر قيامه يقول : سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ثم سجد وقال مثل ذلك ، ثم قرأ آل عمران ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك ..

— وعن حذيفة — رضى الله عنه مثله . وقال : سجد نحوا من قيامه ، وجلس بين السجدتين نحوا منه . وقال : حتى قرأ البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ..

— وعن عبدالله بن الشخير — رضى الله عنه — أتيت رسول الله عليه الصلاة والسلام — وهو يصلى ولجوفه أز يز كأز يز المرجل .

— وقال ابن أبى هالة — رضى الله عنه — كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان دائمَ الفكرةُ ليست له راحة (١) .

صورة ملائكية شفافة مضيئة مشرقة ، تمثل قمة السلوك الإنسانى الربانى ، فالنبى صلى الله عليه وسلم — فيما أوردناه يقسو على نفسه كل القسوة و ينتصر للروح على حساب راحته ومطالب حياته وجسده . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (٢)

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (٣)

فإذا كنا مطالبين بطاعة الرسول والاقتداء به فى عمله وخلقه وعبادته ، وكان مسلكه عليه السلام بالصورة التى رأيناها ، وهذا قليل من كثير أو قطرة من محيط — إذا كان الأمر كذلك فأين « الوسطية العادلة » فى هذه الأعمال وكلها كما رأينا مثالية لا تدرك ؟ ومن الصعب .. إن لم يكن من المستحيل قيام العباد والتزامهم بها .

(*) أى يصوم و يطول صيامه حتى يخيل للمسلمين أنه صوم وِصَال . أما قولها : و يفطر حتى نقول لايصوم فتقصد أنه يتناول فى الإفطار طعاماً قليلاً كهيئة من لاينوى الصيام .

(١) ارجع إلى الشفا للقاضى عياض الجزء الأول ٢٨٥ — ٢٨٨ .

(٢) الحشر ٧ .

(٣) الأحزاب ٢١ .

ودفعا لهذه الشبهة أو هذه الخاطرة نقول : إن ماصدر عن النبى عليه السلام ــ وأشرنا إلى بعضه وهو غاية لا تدرك ــ إنما صدر من « مقام النبوة » .. من « النبى محمد » لا من محمد النبى (١) . وهذه المثالية التى لا تدرك « خصوصية » من خصوصياته والأمة غير مطالبة بأداء مادل الدليل على أنه خاص به كوجوب تهجده بمقتضى قوله تعالى « **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ به نافلةً لَكَ** » (٢) وجواز مواصلة الصوم ، وقد نهى غيره عنه وقال « **وأيكم مثلى ؟ إنى بيت يطعمنى ربى و يسقينى** » (٣) ..

وشدد النبى عليه السلام ــ فى نهى أصحابه عن الاقتداء به فى هذه الخصوصيات أو هذه المثاليات النبوية : « فعن عبد الله بن عمرو قال : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ فقال : ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ قلت : بلى . قال : فلا تفعل قم ونم ، وصم وأفطر فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزورك (زائر يك) عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإنك عسى أن يطول بك عمر ، وإن من حسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، فإن بكل حسنة عشر أمثالها ، فذلك الدهر كله . قال فشددت فشدد على . فقلت فإنى أطيق غير ذلك . قال فصم صوم نبى الله داود . فقلت : وماصوم نبى الله داود ؟ قال نصف الدهر» . (٤)

وكان عليه السلام يغضب إذا ماطلب المسلمون « مزيدا » من التكاليف أو شديدا من الأمر حرصا منهم على مزيد من الثواب ، أو تقربا لمكانتهم عند الله : قالت عائشة ــ رضى الله عنها ــ كان رسول الله ــ عليه السلام ــ إذا أمرهم .. أمرهم من الأعمال بما يطيقون ، قالوا إنا لسنا كهيئتك يارسول الله ، إن الله قد غفر لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر ، فيغضب حتى يعرف الغضب فى وجهه ثم يقول : « **إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا** » (٥) ..

● ● ● ● ● ●

هذه هى الطبيعة الحقيقية للمثالية الإسلامية ، فهى مثالية واقعية إن صح هذا التعبير أو هى واقعية مثالية لاتحلق بعيدا عن معاناة الأرض ودنيا الناس ، ولا تنغمس فى الحمأة المنكودة وشهوانية المادة الصماء « والأخلاق الحقيقية هى التى تضع الضمير الإنسانى فى وضع متوسط بين « المثالى » و« الواقعى » وتجعله يدمج بينهما ، وهذا الدمج يؤدى إلى تغيير مزدوج فى كليهما : ففى عالم الواقع يحدث جديد .. هو الاتجاه نحو الأفضل . كما أن القاعدة

---

(١) صاحب هذا التفريق هو المرحوم عباس العقاد فى كتابه « عبقرية الصديق » .

(٢) الإسراء ٧٩ . فتهجد به : فصلِّ فيه . نافلة لك : فريضة زائدة خاصة بك .

(٣) انظر حسب الله : أصول التشريع الإسلامى ٤٩ . وانظر الحديث بتمامه فى البخارى ٩/ ١١٩ كتاب الاعتصام ..

(٤) البخارى : ٨/ ٣٩ (كتاب الأدب ــ باب حق الضيف) .

(٥) البخارى : ١/ ١١ (كتاب الايمان) ..

المثالية هى الأخرى باحتكاكها بالحقيقة الحسية تعدل نفسها لتلائم الواقع، فإذا احتدم النزاع بين واجبين .. فقد يتعين أن يخلى أحدهما السبيل أمام الآخر، أو تحتم طبيعة العلاقات المركبة بين الأشياء إيجاد نوع من التوفيق بينهما، أو يسمح الجانب غير المحدد من القاعدة باختيار حر يؤكد إنسانية الإنسان .

وهكذا نرى أن الإلزام الخلقى يستبعد « الخضوع المطلق » مثلما يستبعد « الحرية الفوضوية » و يضع الإنسان فى موضعه الحقيقى بين « المادة الصرف » و « الروح الصرف » (١) .

وهذه الوسطية العادلة « للقيم الإسلامية تعد عملية « توفيق » دقيقة جدا بين « الأعلى » و « الأرضى » وهو توفيق ضرورى — كما ذكرنا مراراً — لحياة القواعد الأخلاقية وحيوية الالتزام بها، لأنه اذا حدث « انفصام » بين « العلوى » و « الأرضى » بين المثال والواقع، فقد المثال قيمته العملية، وأصبح الواقع يتخبط بلا مرشد أو ضابط «فلا الصيغة المجردة لقاعدة عامة، ولا التحليل الدقيق للحالة الخاصة — معزولا كلاهما عن الآخر يكفى لهداية إرادتنا، وإنما هو .. تركيب « المثل » الشامل القادم من أعلى مع « الواقع » الراهن الذى ليس سوى إيضاح و بيان حتى يوجد الدليل الممتاز لضميرنا، فبين المثل الأعلى والواقع، بين المطلق والنسبى، يوجد الضمير الإنسانى علامة توحيد يجب أن يستمر فى التقريب بين هذين الطرفين، بأن يؤكد رابطة مابينهما فى صورة العمل الذى يولد من اقترانهما السعيد، و يرتدى هذه الصفة المزدوجة التى يمثلها فى وقت ثبات القانون الأزلى، وجدة الإبداع الفنى» (٢) .

فالعملية إذن عملية « توفيق » لا « تلفيق » والفرق بينهما كالفرق بين الطبيعى المنسجم الأجزاء، والافتعالى الذى قد يدل بظاهره على « توافق » ولكنه فى الواقع يفتقر الى عنصر التفاعل الحقيقى بين جواهره وجزئياته .. وفى التوفيق يراعى التناسب العملى بين العناصر المادية والروحية والعقلية تبعا لمقتضيات الحال فى نطاق الحدود الشرعية. أما التلفيق فلامراعاة .. المهم فيه المظهرية ولو بالتعسف والتعنت . و بسبب هذه الفروق الهائلة بين التوفيق والتلفيق كانت الفروق هائلة بين « العمل الناتج » عن كل منهما : فناتج التوفيق عمل يتسم بالصدق فى المظهر والمخبر، وناتج التلفيق عمل قد يبهر بمظهره ولكنه فى حقيقته خواء ... لايحمل دلالة نفسية على تقوى أو صلاح .. ومن أمثله أعمال « التلفيق » أن رجلا وجد تمرة ملقاة فى شارع من شوارع المدينة، فرفعها بيده وصار ينادى بأعلى صوته « يامَنْ

(١) من تقديم د. السيد محمدى بدوى لكتاب (دستور الأخلاق فى القرآن) ى. هـ

(٢) دراز: دستور الأخلاق فى القرآن ١٢٦ .

ضاعت له نمرة ؟! يامن ضاعت له تمرة ؟! فضربه عمربن الخطاب بدرته وقال له « كلها ياصاحب الورع الكاذب » .

نعم ياصاحب الورع الكاذب ... فالمثالية هنا لم تتلبس تلبسها الحقيقى « بالعمل » المعروض ... والطاقة المبذولة هنا لا « تتناسب » مع طبيعة العمل وقيمته . لذلك كانت وسطية الإسلام عادلة ... وعدلها فى كون صورتها التطبيقية جاءت « توفيقا » لا « تلفيقا » ..

●●●●●

ثالثا : الهيمنة التشريعية

وأقصد بهذه السمة أن كل قاعدة من قواعد الشريعة الإسلامية لها طابعها الأخلاقى ، ووراءها الدافع الإنسانى سواء أكانت قاعدة من قواعد المعاملات أو من قواعد العبادات أو من قواعد الحدود ، وقبل أن نفصّل القول فى هذه السمة علينا أن نذكر ونتذكر أن الإسلام لاينظر الى الشكل والمظهر ولكن ينظر إلى الجوهر والمخبر ، ومن ثم كان للنية الاعتبار الأول فى تكييف الأعمال والحكم عليها :

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال « **إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ماهاجر إليه** » (١) ..

يقول الدهلوى : اعلم أن النية روح والعبادة جسد ، ولا حياة للجسد بدون الروح . والروح لها حياة بعد مفارقة البدن ، ولكن **لا يظهر** آثار الحياة كاملة بدونه ، ولذلك قال تعالى

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ (٢)

وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ "**إنما الأعمال بالنيات**". وشبه النبى صلى الله عليه وسلم فى كثير من المواضع من صدقت نيته ــ ولم يتمكن من العمل لمانع ــ بمن عمل ذلك العمل كالمسافر والمريض لايستطيعان وِرْدًا واظبا عليه فيكتب لهما ، وكصادق العزم فى الإنفاق وهو مملق يكتب كأنه أنفق » (٣) ..

فقيمة العمل إذن والحكم عليه .. يكون بالنية المصاحبة له ، أى بالدافع أو الباعث الذى دفع صاحبه إليه : وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ عن الرجل يقاتل شجاعة و يقاتل حمية و يقاتل رياء : أىّ ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله** (٤) .

---

(١) البخارى ١/٢١ (كتاب الإيمان) ..

(٢) الحج ٣٧ ..

(٣) حجة الله البالغة ٢/٨٣ ..

(٤) صحيح مسلم ٤/٥٦٧ (كتاب الإمارة)

ومن ناحية أخرى قد يكون العمل فى ظاهره طيبا نافعا للفرد والجماعة وأمة المسلمين ومع ذلك لايسقط ثوابه فحسب ، بل أكثر من ذلك يعتبره الإسلام على الرغم من ظاهره ونفعه رذيلة يأثم صاحبها و يعاقب عليها ، وليس أدل على ذلك من الحديث الجامع الذى روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — **إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرّفه نعمه قال فما عملت فيها ؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت . قال كذبت . ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار. ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال قارىء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل وسّع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها . قال فما عملت فيها ؟ قال : ماتركت من سبيل يجب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ، ثم ألقى فى النار(١) .**

وقد تصدق النية ، ومع ذلك يتأدى العمل بصاحبه إلى نتيجة غالطة ولكن يؤجر العامل على عمله هذا ، فقد روى أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « **إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» (٢) ..**

والمسلم يتجنب الشر ، و يأتى من الخير مايستطيع طمعا فى الجنة وخوفا من النار، وهذه النية فى ذاتها أو هذا الدافع فى ذاته لاغبار عليه ، فالمقابل الأخروى ، قد وعد الله به الخيرين من المؤمنين فى عشرات من الآيات :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ (٣)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ (٤)

---

(١) صحيح مسلم ٥٦٨/٤ (كتاب الإمارة)
(٢) البخارى ١٣٢/٩ (كتاب الاعتصام)
(٣) التوبة ١١١
(٤) الكهف ١٠٧

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ (١)

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ (٢)

وقد يكون للمؤمن من وراء العمل الصالح ــ غير الهدف الأخروى ــ هدف دنيوى عاجل ، وهو توفيق الله له فى الدنيا ، وتوسيع باب الرزق وماشابه ذلك ، وقد قال الله تعالى فى محكم كتابه ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (٣)

وإذا كان هذا هو « مقام العامة » فهناك « مقام الخاصة » الذين يعبدون الله ــ لا طمعا فى جنته ، ولاخوفا من ناره ــ فهذه هى عبادة التجار ــ كما قالت السيدة رابعة العدوية ــ ولكنهم يعبدون الله حبًّاله ورغبةً فى رضاه بغض النظر عن الثواب والعقاب .. عن الجنة والنار ، وهم الصفوة التى يقول قائلها:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٤)

وقد صور الإمام الغزالى المقامين وحدد مكان كل منهما فى قوله « الحقيقة ألا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى ، وهو إشارة الى إخلاص الصديقين ، وهو الإخلاص المطلق ، فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة الى الحظوظ العاجلة ، وإلا فهو فى طلب حظ البطن والفرج ، وإنما المطلوب الحق ــ لذوى الألباب ــ وجه الله تعالى فقط (٥) .

فالعمل إذن يوزن بميزان النية ، والعمل يكتسب أو يعدم « قيمته الأخلاقية » تبعا للدافع الذاتى وهو مايسمى بالنية . قال أبوسلمة : قلت لأبى سعيد الخدرى : ماترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم ؟ فقال : ياابن أخى : كل لله ، واشرب لله ، والبس لله ، وكل شىء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية أو سرف » (٦) .

---

(١) البقرة ٢٤
(٢) الكهف ٢٩
(٣) الأعراف ٨٦
(٤) الأنعام ١٦٢
(٥) الإحياء ٨/١٣٥٩
(٦) الإحياء ١١/١٩٦٧

وقد أشرنا من قبل إلى أن « الهيمنة التشريعية » من أهم سمات القيم الإسلامية ، بمعنى أن كل الأعمال والتكاليف لا تأخذ صورتها السليمة ووجهها الصحيح إلا إذا كان لها طابعها الأخلاقى الإنسانى ، وحققت أغراضها ومراميها الإنسانية التى تعدّ فى ذاتها الحِكَم التى أرادها الشارع من وضعها . .

وتتجلى هذه « الهيمنة التشريعية » للطوابع الأخلاقية الإسلامية فى جوانب كثيرة جدا من التشريعات أهمها : العبادات والقواعد القانونية وخاصة فى مجال المعاملات والمدنيات . . وسنحاول أن نلقى الضوء على هذين الجانبين :

أولا : هادفية العبادات :

بنى الله ــ سبحانه وتعالى ــ الإسلام على خمس قواعد . الشهادتين وهما الركن الأول . أما الأركان الأربعة الباقية فتمثل مايسمى بالعبادات وهى : إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

وهذه العبادات حددها لنا النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما وكيفا : فالصلاة خمس منها الثنائية والثلاثية والرباعية فى أوقات محددة ، وهى تؤدى بهيئة معينة حددها النبى عليه السلام .

والزكاة أنواع منها : زكاة المال وزكاة التجارة وزكاة الفطر وزكاة الحيوان . . . الخ
والصوم شهر فى العام هو شهر رمضان .
والحج مرة فى العمر ، فى وقت محدد فى العام بأركان وشروط معروفة .

والمسلم مطالب بأن يؤدى هذه العبادات ــ من الناحية الشكلية المظهرية ــ بالصورة التى تطلبها الإسلام ، فليس له مثلا أن يصلى الظهر ثلاث ركعات ، وليس من حقه أن يصلى المغرب أربع ركعات ، ولكننا نلاحظ بالنسبة لهذه التكاليف التعبدية أمرين :

الأول : أن القرآن لم يفصّل أغلبها من ناحية الكم والتوقيت ، وماعرف بشأن تفصيلاتها إنما عرف من السنة بنوعيها : القولى والعملى .

الثانى : أن القرآن فى حديثه عن هذه العبادات يحرص على أن يربطها دائما بأهدافها وقيمها الأخلاقية والإنسانية العليا ، وقد رأينا من قبل أن المسلم قد يعذب بعمله « الصالح » إذا كان وراءه نية خبيثة غير صالحة ، وهى قاعدة عامة تصدق على الجهاد والعلم والصدقة . . الخ .

ولنقف قليلا أمام المنطق القرآنى . وهو يلفتنا لجوهر العبادة والهدف النبيل الذى شُرِّعت من أجله :

فالصلاة : وهى عماد الدين ــ ذكرت فى القرآن عشرات المرات ، والعجيب أن التعبير عنها كان دائما « بالإقامة » لا « بالأداء » . . . القرآن يقول « أقيموا الصلاة » لا « أدوا الصلاة » و يتحدث عن المؤمنين بأنهم يقيمون الصلاة .

يقول **الإمام** محمد عبده فى تفريقه الباهر بين الإقامة والأداء : إن الصلاة متى حددت بكيفية مخصوصة يقال لمن يؤديها بتلك الكيفية : إنه صلى ، وإن كان عمله هذا خلوا من معنى الصلاة وقوامها المقصود من الهيئة الظاهرة ، فاحتيج إلى لفظ يدل على هذا المعنى الذى به قوام الصلاة ، وهو ماعبر عنه القرآن بلفظ الإقامة ، وقد قالوا : إن إقامة الصلاة عبارة من الإتيان بجميع حقوقها من كمال الطهارة ، واستيفاء **الأركان** والسنن ، وهو لايعدو وصف الصورة الظاهرة ، وإنما قوام الصلاة الذى يحصل بالإقامة هو التوجه إلى الله تعالى والخشوع الحقيقى له والإحساس بالحاجة إليه تعالى .

فإذا خلت صورة الصلاة من هذا المعنى لم **يصدق** على المصلى أنه أقام الصلاة فإنه قد هدمها بإخلائها من عمادها وقتلها بسلبها روحها (١) .

ولقد أبان القرآن الكريم عن جوهر الصلاة وغايتها فى قوله تعالى : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٢)

فرسالة الصلاة هى إحياء النفس وتربية الضمير وصقل القلب ، وغرس التقوى فى **أعماق** المؤمن : فإذا ماهم بمعصية كان لصلاته « صوت » قوى ينهاه و « سوط » لاهب يكبح جماح كل نازع خبيث .

أما إذا تخلت الصلاة ، أو شاء صاحبها أن تتخلى عن رسالتها فهى الاستغفار الذى يحتاج الى استغفار . وعن ابن عباس رضى الله عنهما « من لم تأمره صلاته بالمعروف ، وتنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا » . وعن الحسن رحمه الله « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة وهى و بال عليه » (٣) . .

---

(١) تفسير المنار ١/١٢٨

(٢) العنكبوت ٤٥

(٣) انظر الكشاف ٣/٢٠٧

ومن كرامة الصلاة أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ قرنها أكثر من مرة بخليقة من أنبل الخلائق الإنسانية وهى الصبر :

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ (١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (٢)

﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (٣)

والمصلى الذى يحرص على صلاته ويحافظ عليها يغرس الله فى نفسه الطمأنينة فلا يعرف الهلع أو الضعف أو الاستسلام فى حالة الضراء ، وهو خير معطاء فى السراء . استمع إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ (٢٢) ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ (٤)

فالهلع والجزع من صفات الإنسان الذى خوى قلبه من يقين الإيمان . واستثناء المصلين من هذه النوعية من البشر يمنحهم ــ بمفهوم المخالفة ــ عكس هذه الصفات و يلاحظ كذلك أن الآيات نصت على « ديمومة الصلاة » وهى خصيصة تعطى صفة الاستقرار والاستطراد ، فهى صلاة لايقطعها الترك والإهمال والكسل ، وهى صلة بالله مستمرة غير منقطعة .. وقد كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذا عمل شيئا من العبادة أثبته ــ أى داوم عليه ــ وكان يقول : **وإن أحب الأعمال الى الله تعالى مادام وإن قل »** (٥) .

وإلى هذا المفهوم الجوهرى الإنسانى للعبادة .. كان القرآن يلفت أنظار المسلمين دائما : فالعبرة بجواهر الأشياء لابقشورها وفروعها . وحينما أراد أهل الكتاب أن يشدوا المسلمين إلى معركة فرعية بخوضهم فى مسألة القبلة وتحولها من بيت المقدس إلى الكعبة وخاض معهم بعض المسلمين هذا المخاض ــ حينئذ نزل القرآن ليرد المسلمين إلى النهج الصحيح الذى كاد

---

(١) البقرة ٤٥
(٢) البقرة ١٥٣
(٣) لقمان ١٧
(٤) المعارج ١٩ ــ ٢٣ . هلوعا : سريع الخوف شديد الحرص . جزوعا : كثير الجزع والأسى . منوعا : كثير المنع والإمساك ..

(٥) سيد قطب : الظلال ٦ / ٣٦٩٩ ؛

ينحرف بهم عن الجوهر الصادق إلى المظهر الذى لا تتأسس عليه العقائد ، ولا تبنى عليه قواعد

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (١)

إن القرآن يوجه نظر المسلمين الى المضمون الإنسانى للعمل .. إنه يقول للمسلم : اصدق النية ، وتقدم واثق العزيمة ، وأد العمل بقدر ماتستطيع لله والناس والمجتمع ، أما الذين يهدرون طاقاتهم وجدهم فى قشور الأشياء ومظاهرها فليسوا من الحق ولا من البر فى شىء ..

إن الإسلام يفتح مفهوم البر ليتسع لكل عمل إنسانى ، و يتسع هذا المفهوم حتى يكاد يكون مرادفا « للإنسانية » بجانبيها القولى والفعلى ،« **فالبر كل عمل** يفعله الإنسان قضية لانقياده للملأ الأعلى ، واضمحلاله فى تلقى الإلهام من الله ، وصيرورته فانيا فى مراد الحق ، وكل عمل يجازى عليه خيرا فى الدنيا أو الآخرة ، وكل عمل يصلح الارتفاقات التى بنى عليها نظام الإنسان ، وكل عمل يفيد حالة الانقياد و يدفع الحجب .

والإثم كل عمل يفعله الإنسان قضية لانقياده للشيطان وصيرورته فانيا فى مراده وكل عمل يجازى عليه شرا فى الدنيا أو الآخرة ، وكل عمل يفسد الارتفاقات ، وكل عمل يفيد هيئة مضادة للانقياد و يؤكد الحجب (٢) .

● ● ● ● ●

٢ ــ والصوم لايقصد به الإجاعة والإظماء ، فالامتناع عن الطعام والشراب فى نهار رمضان **هوالمظهر**الحسى المباشر للصوم ، ولكن الصوم ليس « عقابا » يفرض على المؤمن ، إنما هو « تربية » علوية لها جانبها الاجتماعى وجانبها النفسى وجانبها الإنسانى العام مما

---

(١) البقرة : ١٧٧ . البر: هو جميع الطاعات وأعمال الخير. فى الرقاب : فى تحريرها من الرق أو الأسر.. البأساء : الفقر ونحوه . الضراء : السقم ونحوه . حين البأس : وقت مجاهدة العدو.

(٢) الدهلوى :حجة الله البالغة ٥٨/١

لا يتسع هذا المقام لتفصيل القول فيه . وقد قيل لنبى الله يوسف « مالك تجوع وأنت على خزائن الأرض ؟ قال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع » (١) ..

فالصوم إذن ليس إلتزاما بالجوع والعطش المقصودين لذاتها ، ولكنه إلتزام خلقى يتخذ من الجوع والعطش وسيلة موصلة إلى الخير .. يوسف يجوع لا حُبًّا فى الجوع لذاته ولكن ليذكر آلام الجائعين .. والمسلم يجوع و يعطش ليذكر آلام الجوعى والعطشى ..

إن من جوامع الكلم قوله صلى الله عليه وسلم « **الصيام جُنّة** » والجنة بضم الجيم هى كل ما وقى (٢) . فهو وقاية للإنسان من النهم والبطنة وأمراض البدن والمعدة كما أثبت **الأطباء بالشواهد الجازمة** .

وهو وقاية للإنسان من التطلعات الشهوانية ومن السقوط والانحراف والإساءة إلى الآخرين . فالالتزام الخلقى للصائم يقتضيه ألا يرفث ولا **يجهل** وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم (٣)

والإنسان تحكمه عاداته ، و يصل به الأمر إلى أن يصبح مجموعة من العادات ، وتتحكم فيه العادات إلى درجة يصبح معها كأنه آلة من الآلات تسير على نسق معين وتؤدى أعمالاً محدودة ، فيبتعد كل الابتعاد عن المرونة التى تفرق بينه و بين الآلات .

والإنسان الذى تحكمه عادته يصبح عبدا لها ، و يتخلى عن شيم الأحرار الذين يعملون فى حرية واختيار . وفرض الله الصيام ليحرر الإنسان من هذه العبودية ، فإن الصيام يقلب العادات رأسا على عقب ، و يعلم الإنسان نوعا من المرونة حتى لايتصرف تصرف الآلة. (٤)

وصفوة القول أن قيمة العبادات ليست فى كونها حركات تؤدى وشعائر **تؤتى** .. إنما قيمتها أن تكون منهج حياة يشمل كل الحياة ، قيمتها أن تكون خطة سلوك وخطة عمل وخطة فكر وخطة شعور ، قائمة كلها على منهج واضح يتبين فيه ــ فى كل خطة ــ ماينبغى ومالا ينبغى أن يكون (٥)

و يطول بنا المقام لو رحنا نستقرىء القيم النفسية والروحية والدروس العملية فى الزكاة والحج . و يكفينا أن نقول إن كل هذه العبادات استطاعت بحق أن تربى جيلا من المسلمين فتح مشارق الأرض ومغاربها ، ونشر كلمة الله فى أرجاء المعمورة وكأن لسان حالهم يقول ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ (٦)

---

(١) الشفا ١/ ٢٩٩

(٢) القاموس المحيط فصل الجيم باب النون (٤/ ٢١٠)

(٣) انظر البخارى ٣/ ٣١ (كتاب الصوم

(٤) عبدالحليم محمود : أسرار العبادات فى الاسلام ٨٣

(٥) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ٣٩

(٦) البقرة ١٣٨ . صبغة الله : تطهير الله النفوس بالإيمان .

ثانيا : أخلاقية القواعد وبناؤها على أساس إنسانى :

وصف القرآن النبى عليه السلام بأنه على خلق عظيم،ولخص النبى جوهر رسالته فى قوله « **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** ».واتساقا مع هذا الجوهر العظيم فى شخصية الرسول وشخصية الرسالة كانت كل التكاليف الإسلامية — كما ذكرنا أكثر من مرة — ذات مضامين أخلاقية سامية وأهداف إنسانية نبيلة ، « فالشريعة الإسلامية تعتبر من أبرز القوانين التى لا تقيم حدودا فاصلة بين القاعدة القانونية والقاعدة الأخلاقية ، فالنظم القانونية الإسلامية لا تغلق أبوابها فى وجه القواعد الأخلاقية بحيث تستطيع هذه المبادىء أن تتسرب بسهولة إلى الكيان القانونى (١) ..

ومظاهر الهيمنة الأخلاقية على القواعد القانونية الإسلامية كثيرة جدا فى فقه المعاملات بخاصة . نجتزىء منها مايأتى :

١ — نظرية التعسف فى استعمال الحق :

فالنظرية الإسلامية فى الحق ترى أن استعماله يجب أن يعتمد على القيم الإنسانية العليا مثل العدل والمساواة والإحسان واتباع المعروف وتجنب الطغيان والفساد ، وعلى عدد من القواعد الشرعية العامة التى أقرتها الشريعة قصدا إلى إيجاد مجتمع مثالى متكامل سليم صالح .

و بناء على ذلك يجب أن يكون استعمال الحقوق سبيلا إلى تحقيق المصالح وجلبها وإلى دفع المفاسد وتجنبها . سبيلا يقوم النظر فيه إلى المجتمع أولا وإلى الفرد ثانيا باعتباره جزءا منه . فإذا كان فى استعمال المالك حقه ضرر بغيره وجب أن يوازن بين مصلحته المشروعة التى أرادها والمضرة التى تترتب على استعماله له ، فإن رجحت مصلحة المالك سلم له حقه ، وإن رجحت مضرة غيره قيد حقه بما يدفع المضرة .

و يبدو من النظر فى أقوال الفقهاء أن مايترتب على استعمال المالك لحقه من الضرر بغيره قد يكون ضررا محقق الوقوع ، وقد يكون ضررا يغلب على الظن وقوعه ، وقد يكون ضررا لايغلب على الظن وقوعه ، ثم هو مع ذلك قد يكون ضررا كثيرا ، وقد يكون قليلا . وقد يكون ضررا مقصودا ، قصد إليه من أراد من الملاك استعمال حقه وقد يكون غير مقصود لم تتجه إليه إرادة المالك المستعمل لحقه . وعندما تتعارض المصالح والمفاسد فى هذه الأحوال يجب مراعاة تطبيق القواعد الشرعية الآتية :

---

(١) أبو طالب : مبادىء تاريخ القانون ٤١٠

- الضرر يزال .
- يتحمل الضرر الأخف لدفع الضرر الأشد .
- يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام ، ويجب تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ..
- دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح .
- الضرورات تبيح المحظورات (١) .

وثمة ضوابط ومعايير تجعل استعمال المالك لحقه تعسفا ، وهذه المعايير هي :

- إذا لم يقصد المستعمل لحقه سوى الإضرار بغيره .
- إذا كانت مصلحته التي يبتغيها من استعماله حقه تتعارض مع مصلحة عامة أو مصلحة خاصة تفوقها بحيث ترى مصلحة قليلة الأهمية . ولا تتناسب ألبتة مع مايصيب غيره من ضرر عظيم بسببها ، ولم يكن ذلك الضرر نادر الوقوع .
- إذا كانت المصلحة التي يبتغيها المالك من استعمال حقه يؤدى إلى الإضرار بغيره ضررا فاحشا بيّنا ، وكان فى استطاعته تحقيق مصلحته بطريق آخر لا يؤدى إلى هذا الضرر.
- إذا كان الضرر المترتب على الاستعمال عظيما محتمل الوقوع وليس بالأمر النادر.
- إذا كان المالك على علم بترتب الضرر الفاحش ، وكان فى استعماله لحقه مترفها لا يلحقه ضرر من تركه وأقدم مع ذلك عليه (٢) ..

وفى مجال الحديث عن التطبيقات العملية لنظرية التعسف فى استعمال الحق تحدث الفقهاء عن حق الجوار وقالوا : إن للجار على جاره من الحقوق الأدبية والخلقية مايجعله ملزما بالمحافظة على أمواله وحقوقه . وعلى ذلك فليس للجار أن يتخذ من داره مصنعا تنبعث منه رائحة كريهة ، أو يحدث صوتا مزعجا أو هزات قد توهن الجدران وتقلق السكان ، أو يفتح نافذة على ملك جاره ، أو يقيم بناء يمنع الضوء والهواء عن جاره .

لكن هل يمنع الإنسان من هذا قضاء أم ديانة ؟

المتقدمون من الأحناف ومعهم الشافعى وأحمد على أن القياس لايمنع المالك من التصرف فى ملكه كيف شاء ، وحق الجار عليه لايحد من تصرفه فى ملكه : فله أن يتخذ منه مصنعا أو

---

(١) انظر على الخفيف : الملكية فى الشريعة الارسلامية ص ١٠٠ ومابعدها .

(٢) السابق ١٠٤

متجرا أو مسكنا ، وله أن يحفر فيها مايشاء من حفر وآبار إلى غير ذلك من سائر التصرفات ، ولايمنع ذلك بقوة القضاء ، لكن من الناحية الخلقية فإنه يجب عليه أن يحافظ على إحساس جاره وشعوره و يعمل على راحته وإكرامه فإن خالف فلا سلطان لأحد عليه فى الدنيا ، وحسابه على ذلك عند الله .

والمتأخرون من الأحناف ومعهم الإمام مالك تخلفوا عن القياس فى هذا الحكم واستحسنوا أن يلزم الجار بالامتناع عن عمل فيه إيذاء وإضرار ببناء جاره أو راحته ، وخصوصا أن الناس ساءت أخلاقهم وتركوا ما أمرهم به الدين من مراعاة الجار ، فوجب إلزامهم بهذا قضاء وإلزامه بنتيجة فعله وإزالة ماينتج عنه الضرر(١) .

ومن تطبيقات نظرية التعسف على الدائن — وهو صاحب حق لا ينكر — أن عليه أن يمهل المدين إذا كان المدين معسرا استجابة لقوله تعالى ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

يروى أن رجلا أصيب فى عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى ثمار ابتاعها فكثر دينه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« **تصدقوا عليه** » فتصدق الناس عليه فلم يبلغ وفاء دينه . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم « **خذوا ماوجدتم وليس لكم إلا ذلك** » (٣) .

فالشريعة الإسلامية تقتضى الرفق بالمدين عند التنفيذ على أمواله ، لذلك نجد صاحب مرشد الحيران يقرر فى م١٦٤ أنه « إذا كان المالك مديونا دينا ثابتا عليه شرعا يجوز نزع ملكية الزائد عن حوائجه الضرورية المحتاج إليها فى الحال ومنها مسكنه الضرورى إذا لم يكن له مال من جنس ماعليه من الدين الشرعى ، و يباع قضاء إذا امتنع عن بيعه بنفسه لقضاء دينه من ثمنه ، و يبدأ فى البيع بالأيسر فالأيسر بقدر الدين » (٤) .

بل إن الإسلام ذهب فى هذا السبيل إلى حد أنه يجيز نزع الملكية من صاحبها إذا أساء استخدام حقه فيها ، ولم يكن ثمة وسيلة أخرى لمنعه من ذلك . وقد طبق الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — هذا المبدأ تطبيقا عمليا على سمرة بن جندب : فقد كان لسمرة نخل فى

---

(١) أنظر: سلام مدكور: الفقه الإسلامى ٢١٩

(٢) البقرة ٢٨٠ . عسرة : ضيق الحال لانعدام المال . فنظرة : فإمهال وتأخير.

(٣) القرطبى : ٢/١١٨٠

(٤) أبوطالب : السابق ٤١١

بستان رجل من الأنصار، فكان سمرة يكثر من دخول البستان هو وأهله فيؤذى ذلك صاحب البستان فشكاه إلى رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فاستدعى سمرة وقال له: « بعه نخلك » ، فأبى . فقال « فاقطعه » ، فأبى . فقال « هبه ، ولك مثله فى الجنة » فأبى ، فقال عليه السلام « أنت مضار » أى تبتغى ضرر غيرك ، ثم قال لمالك البستان « اذهب فاخلع نخله » (١) ..

وكان للضحاك بن خليفة الأنصارى أرض لايصل إليها الماء إلا اذا مر ببستان لمحمد بن مسلمة ، فأبى ابن مسلمة أن يدع الماء يجرى بأرضه ، فشكاه الضحاك إلى عمر بن الخطاب ، فاستدعى عمر محمد بن مسلمة ، وقال له : أعليك ضرر أن يمر الماء ببستانك؟ قال : لا ، فقال له : « والله لو لم أجد له ممرا إلا على بطنك لأمرته » (٢) ..

ومن هذا القبيـــــل أن الإسلام لايبيح للمالك تعطيل ملكه إن كان فى ذلك التعطيل إضرار بالصالح العام ، فقد جاء فى الأثر أن رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ قد أقطع بلال بن الحارث المزنى « العقيق » وهى أرض قرب المدينة ، فلم يستطع عمارتها كلها . ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة قال « يابلال إنك استقطعت رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أرضا طويلة عريضة فأقطعك إياها ، وإن رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لم يكن يمنع شيئا يُسأله وأنت لا تطيق مافى يديك » فقال « أجل » قال عمر « فانظر ماقويت عليه منها فامسكه ، ومالم تقو عليه فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين » فقال « لا أفعل والله !! شىء أقطعنيه رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ». فقال عمر « والله لتفعلن ».وأخذ منه ماعجز عن عمارته فقسمه بين المسلمين (٣) .

و يروى عن عمر قوله « من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنوات لا يعمرها ، فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها » (٤) ..

٢ ـــ نظرية الضرورة :

يعتبر رفع الحرج أصلا من أصول الشريعة الإسلامية ، و يعنى بالحرج تحمل المرء مشقة زائدة عن المشقة المعتادة فى التكاليف وذلك مرفوع عن المكلفين لأمرين :

---

(١) انظر د . على عبدالواحد وافى : حقوق الإنسان فى الإسلام ٧١

(٢) السابق ٧٢

(٣) السابق ٧٣ . وانظر كذلك أبا يوسف فى الخراج ١٣٢

(٤) أبو يوسف : الخراج ١٣١

الأول : أن المكلف مطالب بأعمال متنوعة لابد له من القيام بها ، فإذا تجاوز حد الاعتدال من ناحية فقد تعرض للانقطاع أو التقصير فى ناحية أخرى ، وتوجه إليه اللوم على ذلك ، كمن يكثر من العبادة حتى يقصر فى حق الزوجة والولد ، ويهمل السعى فى طلب الرزق .

والثانى : أن تحميل النفس من التكاليف مايشق يبغضها إليها ، و يؤدى بها إلى الانقطاع عن التكاليف جملة ، ومن أجل هذا جعل الله الشريعة سهلة محببة إلى قلوب المؤمنين (١) ..

قالت عائشة ــ رضى الله عنها ــ ماخُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما مالم يكن إثما،فإن كان إثما كان أبعد الناس منه (٢) .

لذلك كانت نظرية الضرورة لونا من ألوان التيسير على الناس ودفع الحرج عنهم وهى تعتبر تطبيقا مهما للاتجاه الأخلاقى الذى يسود التشريع الإسلامى ، فهى تسود فى كثير من المبادىء القانونية الإسلامية ، وتعتمد على كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وقد عبر الفقهاء عن هذه المبادىء بتعبيرات مختلفة منها : لاضرر ولاضرار ، المشقة تجلب التيسير ، الضرورات تبيح المحظورات ، الضرر يدفع بقدر الإمكان (٣) .

فالضرورة تلجىء الإنسان إلى الاضطرار ، والاضطرار عند علماء الشريعة هو الإلجاء إلى الفعل من الإنسان أو غيره ، فهو يشمل الإكراه الذى يكون الدافع فيه على الفعل من الإنسان ، و يشمل غيره ، وهو مايكون الدافع فيه على الفعل القوة الطبيعية .

وهذان النوعان يتساويان فى أنَّ كلا منهما قد يبيح المحظور تمشيا مع قاعدة الضرورات تبيح المحظورات . والأحناف يقسّمون الإكراه من ناحية إباحة الفعل والترخيص فيه إلى ثلاثة أقسام :

الأول : نوع يبيح الفعل كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وشرب الخمر إذا كان الإكراه تاما لأن هذه الأشياء مما يباح عند الاضطرار .

الثانى : لايبيح الفعل لكنه يمنع المؤاخذة وهو إجراء كلمة الكفر على اللسان مع اطمئنان القلب بالإيمان إذا كان الإكراه تاما ، وهو يحرم فى نفسه مع ثبوت الرخصة المانعة

---

(١) انظر حسب الله : أصول التشريع الإسلامى ٢٤٨ ــ ٢٤٩

(٢) البخارى : ٨/٣٧ (كتاب الأدب)

(٣) أبو طالب : السابق ٤١٢

من المسئولية ، لأن كلمة الكفر مما لايحتمل الإباحة بحال ، فكانت الحرمة قائمة إلا أنه سقطت المؤاخذة لعذر الإكراه .

الثالث : لايبيح الفعل ولايرخص فيه : كقتل المسلم بغير حق ، أو قطع عضو من أعضائه ولو كان الإكراه تاما لأن قتل المسلم بغير حق لايحتمل الإباحة (١) .

ولنظرية الضرورة تطبيقات متعددة من أهمها : التطبيقات المتعلقة بعقد **الإيجار**: من ذلك إنقاص الأجرة فى حالة هلاك الزرع فى العين المؤجرة كمن يستأجر حماما فى قرية ثم يهجر الناس تلك القرية ، وقد يرجع العذر للمؤجر كمن يضطر لبيع عين مؤجرة ليوفى من ثمنها دينا عليه إذا لم تكن لديه وسيلة أخرى يستطيع بمقتضاها وفاء ذلك الدين ، وقد يرجع العذر للمستأجر كأنتقاله من حرفة إلى أخرى أو إفلاسه ..... (٢) .

وقد وضع الفقهاء « للحالة » حتى تكون من قبيل حالات الضرورة شروطا أربعة هى :

— أن تكون الضرورة ملجئة بحيث يجد الفاعل نفسه أو غيره فى حالة يخشى منها تلف النفس أو الأعضاء .

— أن تكون الضرورة قائمة لامنتظرة : فليس للجائع أن يأكل الميتة قبل أن يجوع جوعا يخشى منه .

— ألا يكون لدفع الضرورة وسيلة إلا ارتكاب المحرم ، فإذا أمكن دفع الضرورة بفعل مباح امتنع دفعها بفعل محرم : فالجائع الذى يستطيع شراء الطعام ليس له أن يحتج بحالة الضرورة إذا سرق طعاما .

— أن تدفع الضرورة بالقدر اللازم لدفعها ، فليس للجائع المضطر إلى أكل الميتة أن يأكل منها إلا بقدر إذهاب الهلكة عنه (٣) .

ونظرية الضرورة فى الشريعة الإسلامية تتمشى مع أحدث النظريات القانونية التى ظهرت فى الفقه الحديث فى هذا الصدد ، وقد عبر عن ذلك الفقيه الفرنسى لابير بقوله « تعتبر نظرية الضرورة فى الفقه الإسلامى أشد ماتكون جزما وشمولا عن فكرة يوجد أساسها فى القانون الدولى العام فى نظرية الظروف المتغيرة ، وفى القضاء الإدارى الفرنسى فى نظرية الظروف الطارئة ، وفى القضاء الانجليزى فيما أدخله من المرونة على نظرية استحالة

---

(١) راجع سلام مدكور : نظرية الإباحة عند الأصوليين والفقهاء ٣٨٨ — ٣٩١

(٢) أبوطالب : السابق ٤١٢

(٣) أنظر : عودة « التشريع الجنائى الإسلامى » : القسم العام ٥٧٧

تنفيذ الالتزام تحت ضغط الظروف الأقتصادية التى نشأت بسبب الحرب ، وفى القضاء الدستورى الأمريكى فى نظرية الحوادث المفاجئة (١) .

ونظرية الحوادث أو الظروف الطارئة التى أشرنا إليها والتى تجد أصلها فى نظرية الضرورة الإسلامية — نظرية الحوادث الطارئة تعبر عنها الفقرة الثانية من المادة ١٤٧ من القانون المدنى المصرى . تقول الفقرة الأولى من هذه المادة « العقد شريعة المتعاقدين » فلايجوز نقضه ولا تعديله إلا باتفاق الطرفين أو للأسباب التى يقررها القانون

وتنص الفقرة الثانية — وهى شاهدنا هنا — « ومع ذلك إذا طرأت حوادث استثنائية عامة لم يكن فى الوسع توقعها ، وترتب على حدوثها أن تنفيذ الالتزام التعاقدى- وإن لم يصبح مستحيلا - صار مرهقا للمدين بحيث يهدده بخسارة فادحة-جاز للقاضى-تبعا للظروف و بعد الموازنة بين مصلحة الطرفين-أن يرد الالتزام المرهق إلى الحد المعقول ، و يقع باطلا كل اتفاق على خلاف ذلك » .

وتتلخص فكرة هذه النظرية أن هناك عقودا يتراخى فيها التنفيذ إلى أجل أو إلى آجال ، ويحصل عند حلول أجل التنفيذ أن تكون الظروف الاقتصادية قد تغيرت بسبب حادث لم يكن متوقعا ، فيصبح تنفيذ الالتزام شاقا على المدين . ومرهقا له إلى الحد الذى يجعله مهددا بخسارة فادحة . الأمر الذى يجيز للقاضى أن يتدخل ليوزع تبعة هذا الحادث على عاتق الطرفين .

ومثال ذلك أن يتعهد شخص بتوريد سلعة ثم يحدث قبل حلول ميعاد التوريد أن يرتفع ثمن هذه السلعة إلى ثمانية أضعاف ثمنها وقت العقد ، وذلك بسبب قيام حرب فجائية أدت الى تعذر ورود السلعة من الخارج فيصبح هذا الشخص مهددا بخسارة جسيمة تجاوز الحد المألوف فى مثل هذه الحالة وحينئذ يجوز للقاضى أن يعدل التزام المدين بحيث يقف به عند الحدود المعقولة (٢).

و واضح أن الفقرة الأولى من المادة المذكورة تعبر عن القاعدة العامة فى العقود أما الفقرة الثانية فتمثل الاستثناء الوارد على هذه القاعدة وهو استثناء يعتمد أول مايعتمد على قواعد العدالة التى توجب مراعاة الظروف .

وشبيهة بالشروط التى اشترطها فقهاء المسلمين فى حالة الضرورة كانت الشروط التى اشترطها فقهاء القانون فى الحادث الطارىء حتى ينتج أثره القانونى ، فاشترطوا فى هذا الحادث من حيث طبيعته ومنشئه :

(١) أبو طالب السابق ٤١٢

(٢) عبدالمنعم الصدة : مصادر الالتزام ٣٣١— ٣٣٢

— أن يكون استثنائيا .. أى نادر الوقوع كزلزال أو حرب أو وباء .
— أن يكون عاما كالأحداث السابقة لا خاصا بالمدين كمرضه أو موت ابنه ..
— ألا يكون متوقعا وقت إبرام العقد .
— أن يستحيل تحاشي وقوعه .

ويشترط فى هذا الحادث الاستثنائى من حيث نتيجته .. أن يترتب عليه جعل الوفاء مرهقا للمدين **إرهاقا** يهدده بخسارة فادحة ويقدر الإرهاق تقديرا موضوعيا لاشخصيا أى يعول فى تقدير الإرهاق على مدى اختلال التوازن الاقتصادى بين التزامات الطرفين بقطع النظر عن ثروة المدين (١) .

فالنظريتان : نظرية التعسف فى استعمال الحق ، ونظرية الضرورة اللتان تركتا بصماتها واضحة فى نظرية القوة القاهرة ونظرية الظروف الطارئة استقتا من منبع أصيل هو « الإنسانية ».والإنسانية هى القيمة العليا التى تجعل العدل فوق القوة ، والروح فوق الحرفية والرحمة فوق القانون .. فالقانون فى الإسلام وسيلة لا غاية .. وحتى القانون — بهذا التحديد — تتقدم عليه نوازع الرحمة والعفو والأمان والإعذار : حينما جاء ماعز إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — مقرا بالزنى رده النبى عدة مرات وكان « يستجوبه » استجواب الرءوف الرحيم الذى يفتح أمام المتهم ألف باب وباب للتراجع « لعلك باشرتها .. لعلك فاخذتها .. لعلك .. لعلك ».ولكن ماعزا يصر على أنه ارتكب الزنى الموجب للحد .. لأنه يحرص على حد قوله أن « يتطهر بالحد » نعم فالخطيئة لم تقتل فيه عنصر الطهر النادم أو الندم الطهور .

ورجم النبى — صلى الله عليه وسلم — الغامدية بعد أن ردها كذلك عدة مرات حتى وضعت حملها .. ثم حتى فطمت طفلها الذى جاءت به من سفاح .. واشترك خالد بن الوليد فى رجمها ، وسبها خالد لأن دما منها أصاب وجهه ، فغضب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال :« مهلا ياخالد . فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت (٢) ..

وفى عهد عمر يسجل المسلمون انتصارا حاسما فى « تُسْتَر » ببلاد فارس ولكن عمر لم يفرح للنصر بقدر ماحزن حينما علم أن المسلمين قتلوا فى تستر مسلما ارتد عن الإسلام . قال عمر

(١) راجع فى تفصيل ذلك : سليمان مرقص : موجز أصول الالتزامات (٣٥٥ — ٣٦٢)
(٢) زاد المعاد ٣/٢٠٦ (والمكس : النقص والظلم) .

والحزن يعتصر قلبه « فهلا أدخلتموه بيتا ، وأغلقتم عليه ، وأطعمتموه كل يوم رغيفا فاستتبتموه ، فإن تاب وإلا قتلتموه ؟ ثم قال « اللهم إنى لم أشهد ولم آمر ولم أرض إذ بلغنى » (١) ..

وللعلماء كلام إنسانى كثير فى الحدود : منه أن الحد لايجب على جاهل بالتحريم لأنه — صلى الله عليه وسلم — سأل الزانى عن حكم الزنى . فقال « أتيت منها حراما مايأتى الرجل من أهله حلالا ؟ » .وأن الحد لايقام على الحامل ، وأنها إذا ولدت الصبى أمهلت حتى ترضعه وتفطمه . وأن الإمام لايجب عليه أن يبتدئ بالرجم ، وأنه لايجوز سب أهل المعاصى إذا تابوا وأنه يصلى على من قتل فى حد الزنى . وأن المقر إذا استقال فى أثناء الحد وفَرّ ترك ولم يتم عليه الحد،فقيل لأنه رجوع ، وقيل لأنه توبة قبل تكميل الحد ، فلايقام عليه كما لو تاب قبل الشروع فيه (٢) .

وأخيرا وقبل أن نترك هذا الفصل علينا أن ننتبه إلى ملمح قرآنى قوى يدور فى فلك الهيمنة التشريعية للأخلاق فى الأحكام والأعمال والتكاليف ، وأعنى بهذا الملمح القرآنى « الحضور الربانى » أو « حضور اسم الله » فى الأوامر والنواهى والأحكام والقصص والأخبار والمعاملات ومظاهر الطبيعة والعقاب والنعيم ... الخ : ففى أول آية قرآنية « اقرأ باسم ربك ... » رُبطت القراءة أو العلم باسم الرب الخالق البانى للإيحاء بأن العلم يجب أن يكون ذا هدف إنسانى فى بناء نبيل كما أشرنا من قبل .

والمداينة أمر لاتخلو منه حياة الأفراد والمجتمات ، بل هى أصل من أصول الاقتصاد حاليا فى العلاقات المصرفية على مستوى الأمة الواحدة بأفرادها فى علاقاتها الاقتصادية .

وآية المداينة هى أطول آية فى القرآن وأكثرها تفصيلا (٣) . ومع أن الآية تتعلق بالتعامل المادى البحت .. إلا أن القرآن يذكر المتعاملين باسم الله ويهز فى نفوسهم وجدان التقوى وحياة الضمير « ..... ولايأب كاتب أن يكتب **كما علمه الله** » « وليملل الذى عليه الحق **وليتق الله ربه** » « ..... **واتقوا الله** و يعلمكم الله » « ... فليؤد الذى اؤتمن أمانته **وليتق الله ربه ..** والله بما تعلمون عليم » .

---

(١) الطنطاويان : سيرة عمربن الخطاب ٣٥١

(٢) زاد المعاد السابق نفس الصفحة

(٣) البقرة ٢٨٢

التـذكير بالتقوى والعدل واسـم الله . . كلها أمور تحول بين الإنسان وغُرام المادة وجاذبيتها القوية : فلا يسقط فى حمأة الشيطان بالغش أو الكذب فى الكتابة أو الشهادة أو الإملاء .

وآيـات الـربـا والمـيـراث والوصية والقتال والزواج .. الخ تنحو هذا المنحى وتتخذ نفس الاتجاه ، وكلها تحرص الحرص كله على تربية الوجدان الأخلاقى فى الإنسان ..

الفصل الثالث

مُحَمَّد

القِيَمُ .. والمنْهج

سئلت السيدة عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ فقالت : كان خلقه القرآن : يرضى برضاه و يسخط بسخطه (١) . .

ولم تبالغ السيدة عائشة ولم تسرف فى القول لأن القرآن لم يذكر أية قيمة من القيم الأخلاقية إلا وكان لها مكانتها فى شخصية الرسول ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ فى أقواله وأفعاله .

ووصفه ابن أبى هالة بقوله « كان دائم البِشْر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ولا فحاش ، ولا عياب ولا مداح » (٢) . .

وحينما سأله على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن سنته قال : **« المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضاء غنيمتى ، والعجز فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة » (٣) .**

المعرفة .... العقل ... الحب ... الشوق .... ذكر الله ... الثقة .. قائمة من القيم الأخلاقية الإنسانية العظيمة ، صنعت النسيج النفسى لهذه الشخصية العظيمة .. وكل صفة منها يمكن ردها إلى مأصلها القرآنى ، بل إن القرآن قد ألح على كل واحدة منها بعشرات من الآيات ، ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى صدق السيدة عائشة حين قالت « كان خلقه القرآن » .

لقد عصمه الله من مفاتن الجاهلية من صغره ، وكان فى شبابه وقبل أن يبعثه الله نبيا ورسولا موضع ثقة المجتمع الجاهلى فهو عندهم « الأمين » .. وهو الصادق الذى لا يعرف الكذب بشهادة أبى سفيان أمام قيصر الروم ، ولم يكن أبوسفيان قد أسلم آنذاك ..

● ● ● ● ●

---

(١) أنظر الشفا ١ / ٢٠٧

(٢) السابق ١ / ٢٤٦

(٣) السابق ١ / ٢٨٩ . فى قوله عليه السلام « والعجز فخرى » يقصد بالعجز : إظهار الضعف أمام الله والخشوع له والاحتياج الدائم إليه ، وليس انعجز هنا بمعنى التواكل والتكاسل وتحقيرهمة النفس أمام المخلوقين ، يؤيد ذلك ماروى عن أبى سعيد الخدرى ـــ رضى الله عنه ـــ قال : دخل رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ذات يوم المسجد فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبوأمامة ، فقال يا أبا أمامة مالى أراك جالسا فى المسجد فى غير وقت صلاة » قال : هموم لزمتنى وديون يارسول الله ، قال أفلا أعلمك كلاما إذا قلته أذهب الله همك ، وقضى عنك دينك ؟ قلت بلى يارسول الله . قال : قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » أخرجه أبوداود ..

ومن عجب أن قريشا التي جمعت عصبة شر: من كل قبيلة فتى لضرب محمد ضربة رجل واحد حتى يتفرق دمه في القبائل، فلا تقدر هاشم ولا بنو عبد المطلب أن يثأروا لدمه.. قريش هذه لم تكن تستأمن على ودائعها إلا محمدا عليه السلام، ومن ثم خلف النبي عليا وراءه في مكة ليؤدي الودائع لأصحابها، وهاجر هو وصاحبه أبوبكر..

إنها الأمانة التي لا تفرق في المعاملة بين المسلم والكافر، وكان هو أول الآخذين أنفسهم بقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ ﴾ (١)

وفي أرض الجهامة والعبوس والقسوة: قسوة الطبيعة وقسوة الأرض وقسوة الحياة وقسوة قلوب كالحجارة بل أشد قسوة ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ (٢)

في هذه الأرض ظهر محمد رحمةً مهداة، فأحب أصحابه، وأحبه أصحابه حبا لم يحبوه آباءهم وأبناءهم وإخوانهم، وبالرحمة استطاع أن يكبح جامح النفوس وأن يلين جامد القلوب، وتحقق فيه قوله تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (٣)

نعم لانفضوا من حولك، ولكنك كنت «الرحمة المهداة» التي جمعت حولها قلوب القساة الأفظاظ فإذا هي ألين من الماء وأنقى من صفحة السماء إنه ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (٤)

---

(١) النساء ٥٨
(٢) البقرة ٧٥
(٣) آل عمران ١٥٩
(٤) الفتح ٢٩

ورحمته جمعت حوله من حرموا الرحمة ، واستضعفوا فى الأرض .. هؤلاء الذين أمره ربه أن يصبر نفسه معهم .. مع هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه فأحبهم وأحبوه .. ووعدهم الله ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (١)

ومرت الأعوام ... وكما وعد محمد : تملك بدوى فقير سوارى كسرى ، وأذّن مستضعف آخر من قمة الإيوان .. ودك المستضعفون الحفاة ملك قيصر ، وامتدت للإسلام امبراطورية لا تغيب عنها الشمس .

ولم تكن رحمة محمد تقف عند حد ، فهى متسعة الأرجاء ممتدة المناحى : نقل القاضى عياض عن بعض العلماء قوله « ومن فضل محمد أن الله أعطاه اسمين من أسمائه فقال : بالمؤمنين رءوف رحيم » (٢) ..

وكان رحيما بالأطفال محبا لهم : قال أبوهريرة : قبل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالسا . فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ماقبلت منهم أحدا ، فنظر إليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال : من لايَرحم لا يُرحم » (٣) .

ويروى أنه عليه الصلاة والسلام — صلى بأمامة ابنة ابنته زينب يحملها على عاتقه فإذا سجد وضعها ، وإذا قام حملها (٤) .

وكان رحيما حتى مع المخطئين ، وقد أشرنا فى الفصل السابق إلى موقفه من ماعز وموقفه من الغامدية . فإذا ماكان الخطأ ناتجا عن جهل بقواعد الدين أو قواعد التعامل والعلاقات الاجتماعية لم يقْسُ على المخطىء بل أخذه بالرأفة ، وَوَجَّه نظره فى هوادة . فحينما رأى المسلمون أعرابيا يبول فى المسجد .. حاولوا أن يمنعوه ويؤذوه فأمرهم النبى أن يتركوه ولايقطعوا عليه بوله ، لأن ذلك يحزنه ويؤذيه ، ثم يدعوبدلو من ماء يصب على مكان التبول ويرشد الأعرابى فى رأفة وهوادة إلى مايجب عليه عمله فى مثل هذه الحال (٥) ..

---

(١) النور ٥٥
(٢) الشفا ١/ ٢٥١
(٣) البخارى ٨/ ٩ (كتاب الأدب)
(٤) الشفا ١/ ٢٥٩
(٥) أنظر البخارى ٨/ ١٤ (كتاب الأدب)

ولم يحرم الحيوان حظه الأوفى من رحمة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقد نهى أن يتخذ الناس الحى ــ أى الطير والحيوان ــ غرضا توجه إليه السهام (١) .

وهو عليه السلام القائل « **إن الله كتب الإحسان على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته** » (٢) .

ومن أعجب مايروى فى باب رحمته بالحيوان ، أنه عليه السلام حينما زحف بالألوف ذات العدد إلى مكة لفتحها رأى كلبة تهر على أولادها ، وهن حولها ترضعهن . فخشى الرسول عليه السلام أن يسحقها الزاحفون هى وأولادها دون أن يشعروا . فأمر جعيل بن سراقة أن يقوم حذاءها حتى لايعرض لها أحد من الجيش ولا لأولادها(٣)

وأنذر عليه السلام بعذاب الله من يعذب حيوانا : أليس هو القائل : **عُذبتْ امرأةٌ فى هرةٍ أوثقتْها ، فلم تطعمْها ، ولم تسقها ولم تَدَعْها تأكلُ من خَشَاشِ الأرض** (٤)

حتى فى الخلاف والقتال .. حتى حينما تتشابك الرماح بلا هوادة،وتتعانق السيوف فى وحشية .. حتى حينما تتهاوى كثير من القيم ، و يستبد بالمتلاحمين الغضب والكراهية والبغضاء والنقمة .. حتى فى هذه الحال : شجارا أو قتالا : ليبْقَ هناك الحد الأدنى من الإنسانية ، وهو كما قال الرسول ــ عليه السلام ــ « **تجنبْ الوجهَ فإن اللهَ خلَقَ آدمَ على صورَتِهِ** » (٥) .

وضرب الوجه بسيف أو نحوه إن ترك تشوها فيه عاش صاحبه طيلة حياته منغص النفس، معذب القلب،ناقما على الحياة والأحياء بعد أن فقد جمال صورته ورواءها . وإن كانت الضربة لطمة أو نحوها فهى الإهانة التى لا تغتفر، وقد تجر إلى القتل وسفك الدماء لذلك جعل الله سبحانه وتعالى ــ ضرب الوجوه من أشد ألوان التحقير والإهانة فى الآخرة :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ (٦)

(١) صحيح مسلم ٤/٦٢٤ (كتاب الصيد والذبائح)
(٢) السابق ٤ / ٦٢٢
(٣) إمتاع الأسماع ٣٦٦
(٤) مسلم ٥ / ٤٧٩
(٥) السابق ٥ / ٤٧٢
(٦) الأنفال ٥٠

نعم .... فى منطق الإسلام .. الرحمة مطلوبة .. الإنسانية لازمة .. حتى فى مقام درج الناس فيه على إسقاط الرحمة والإنسانية من قائمة حسابهم .

وإذا كان هذا هو مكان الرحمة فى قائمة القيم المحمدية فلا عجب أن يربطها النبى بالخير بل يجعل الخير بأوسع معانيه متوقفا عليها « من يحرم الرفق يحرم الخير » (١) . إنه يحرم خير الدنيا حين يفقد — بفظاعته وقسوته — حب الآخرين فهم منه نافرون ، وهم له كارهون .. إنه يحرم خير الآخرة ، لأنه حصاد العمل الصالح فى الدنيا، والقلب الذى يفقد الرحمة لايعرف الطريق إلى العمل الصالح . وكم من لمسة حانية فتحت مغالق القلوب وألانت شماس الأخلاق ، وكم من كلمة طيبة فرجت أزمات ، وحلت مشكلات معضلات .

● ● ● ● ●

ومن الصفات التى ترتبط بالرحمة أوثق ارتباط .. حلمه — عليه الصلاة والسلام — كان حليما وسع بحلمه كل من أساء إليه .. لقد عاد إلى مكة فاتحا بعد أن خرج منها مُهَاجراً فارا إلى ربه بدينه .. بعد ثلاثة عشر عاما من المعاناة والعذاب .. ولو أنه — إذ فتح مكة — قتل رءوس الكفر فى قريش ما لامه أحد ، ولو أنه — إذ فتح مكة — صادر أموال أهلها ... أو على الأقل أموال رءوسها وزعمائها لكان تصرفه هذا لونا من ألوان « التعويض » أو « الاسترداد » بعد أن « نهب » القرشيون أموال المسلمين ودورهم .

ولكن قلب محمد لم ينغلق عن هؤلاء الكافرين ، فظل إلى آخر لحظة يطمع فى إسلامهم ، وكان دعاؤه لهم — وهم المسيئون إليه — « اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون » . وفى مكة ... المدينة المفتوحة يخطب الرسول الظافر فى الألوف الذين انحنت رءوسهم ذلة وانكسارا وخوفا من سيف القائد النبى الفاتح ، وجاء الحكم عفوا عاما ورحمة دافقة وإنسانية لا تعرف التوقف « اذهبوا فأنتم الطلقاء » (٢) .

عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : كنت أمشى مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعليه بُرد نجرانى غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجبذ بردائه جبذة شديدة . قال أنس : فنظرت إلى صفحة عاتق النبى — صلى الله عليه وسلم — وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته . ثم قال : يامحمد مُرْ لى من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بعطاء (٣) ..

(١) مسلم ٥ / ٤٥٢ (كتاب البر)
(٢) راجع سيرة ابن هشام ٣ / ١٦ — ٤٤
(٣) البخارى ٨ / ٢٩ (كتاب الأدب)

وعفو النبى عن المسىء كان دائما عفو القادر الذى لا يعجز عن النصر والغلبة،ولم يكن عفو الضعيف المستضعف،لأن التصرف هنا لا يسمى «عفوا» ولكنه استسلام المقهور المغلوب الذى يعجز عن غالبه، ولا يملك له شيئا.

وهو عليه السلام كان يعفو فى مواقف يكون العفو فيها أكبر من أن تتحمله طاقة البشر: عفا عن وحشى الحبشى قاتل أحب الناس إلى نفسه: عمه حمزة. وعفا عن هند بنت عتبة التى دبرت مؤامرة قتل حمزة، ولاكت كبده يوم أحد. واستبد به الحزن والغضب فى هذا اليوم المحزون، فأقسم أن يقتل بعمه سبعين من الكفار فنزل قوله تعالى يذكره بمقام النبوة:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾(١)

• • • • •

والعفو عند المقدرة وهو التطبيق العملى لفضيلة الحلم لايتحقق فى نفس يعرف الغضب إليها سبيلا، لذلك كان من أبرز صفات المتقين كظم الغيظ والعفو والإحسان إلى الناس(٢). و يلفت الرسول عليه السلام أنظار المسلمين إلى أن القوىّ الحقيقى هو الذى يملك نفسه عند الغضب، وليس هو الصرعة الذى يغلب هذا و يصرع ذاك(٣)...

• • • • •

وفى فلك الرحمة أيضا تدور فضيلة الوفاء.. الوفاء للأصدقاء والأقارب وذوى الفضيلة والجيران والخلاّن. إنه الثبات على الإحسان وحسن الذكر وحسن العمل على بعد العهد واتساع الفراق. وكان الوفاء خليقة بارزة من خلائقه عليه السلام، ومن عجائبه فى ذلك أنه بعد إحدى الغزوات سأل أصحابه: هل تفقدون من أحد؟ قالوا: نعم فلانا وفلانا وفلانا. قال: هل تفقدون من أحد؟ قالوا نعم فلانا وفلانا وفلانا: ثم قال هل تفقدون من أحد؟ قالوا: لا. قال: لكنى أفقد جُليبيبا فأطلبوه» فطلب فى القتلى فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فوقف عليه فقال: قتل سبعة ثم قتلوه. هذا منى وأنا منه، فوضعه على ساعديه ليس له إلا ساعدا النبى — صلى الله عليه وسلم — فحفر له ووضع فى قبره(٤).

(١) النحل ١٢٦ و١٢٧

(٢) «الذين ينفقون فى السّراء والضّرّاء والكاظِمينَ الغيظَ والعَافينَ عَن النّاس والله يُحبُّ المحسنين» آل عمران ١٣٤.

(٣) أنظر الحديث فى البخارى ٨/٣٤ (كتاب الأدب)

(٤) مسلم ٥/ ٣٣٥ (كتاب الفضائل)

وجُلَيبيب كان من عامة الناس ، لم يكن من وجهاء الصحابة ولا أغنيائهم بل كان قصيرا دميا ، رفض أنصارى وزوجته أن يزوجاه ابنتها لدمامته لولا أن الفتاة نزلت على أمر رسول الله فدعا لها النبى بالخير ، فصارت هى وجليبيب من أكثر الناس خيرا (١) . .

ووفاء النبى للسيدة خديجة بعد موتها أشهر من أن نقف عنده طويلا ، لقد ظل — عليه السلام — يذكرها دائما بالخير والحب أمام نسائه جميعا وخاصة عائشة وهى أحب نسائه إليه بعد خديجة . قالت عائشة : استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك فقال : اللهم هالة بنت خويلد.فغرت فقلت : وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت فى الدهر فأبدلك الله خيرا منها (٢) . وكان إذا سمع من عائشة مثل ذلك قال : نعم خديجة : إنى رزقت حبها »(٣) . .

ومن وفائه عليه السلام — لها ولذكراها أنه — كما تروى عائشة : كان يذبح الشاة ويهدى منها لأهل خديجة وأقاربها وصواحبها (٤) .

و يرسم الإمام الغزالى صورة حية نابضة للوفاء الحقيقى فهو الثبات على الحب ، وإدامته إلى الموت معه ، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه فإن الحب إنما يراد للآخرة ، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل ، وضاع السعى ، ولذلك قال عليه السلام فى السبعة الذين يظلهم الله فى ظله « ورجلان تحابا فى الله ، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه » وقال بعضهم : قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره فى حال الحياة.ولذلك روى أنه — صلى الله عليه وسلم — أكرم عجوزا أدخلت عليه ، فقيل له فى ذلك فقال : « إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن كرم العهد من الدين (٥) .

• • • • •

والصبر هو الخليقة العملية التى تعتمد على الرزانة وقدرة العقل ومغالبة الشهوات وأهواء النفس . والصبر نوعان : صبر عن اللذائذ والمغريات ، وصبر على الشدائد والكربات ، والأول « امتناع » والثانى «ثبات ».الأول كالصبر عن الطعام والشراب بالصيام. والثانى كالصبر على الأذى والفقر والحرمان . . الخ .

---

(١) أسد الغابة ١ / ٧٧٢

(٢) مسلم ٥ / ٢٩٣ (كتاب الفضائل)

(٣) السابق نفس الصفحة

(٤) أنظر البخارى ٨ / ١٠ (كتاب الأدب)

(٥) إحياء علوم الدين ٥ / ٩٧٥

وكلاهما له فى حياة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وجود وأى وجود . يقول عليه السلام:« ليس أحد ، أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم ليدعون له ولدا ، وإنه ليعافيهم و يرزقهم » (١) ..

لقد كان عليه السلام يلبس فى الغالب الشملة والكساء الخشن والبُرْد الغليظ و يقسم على من حضره أقبية الديباج المخوصة بالذهب و يرفع لمن لم يحضر(٢) ...

قالت عائشة ــ رضى الله عنها ــ « لم يمتلىء جوف النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ سبعا قط ، ولم يبث شكوى لأحد ، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى ، وإن كان ليظل جائعا يلتوى طول ليلته من الجوع ، فلايمنعه صيام يومه ، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها ، ولقد أبكى له رحمة مما أرى به وأمسح بيدى على بطنه مما به من الجوع ، وأقول نفسى لك الفداء ، ولوتبلغت من الدنيا بما يقوتك ؟ ! فيقول ياعائشة : مالى وللدنيا ، إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا ، فمضوا على حالهم ، فقدموا على ربهم فاكرم مآبهم ، وأجزل ثوابهم ، فأجدنى استحى إن ترفهت فى معيشتى أن تقصر بى غدا دونهم ، وما من شيء أحب إلى من اللحوق بإخوانى وأخلائى (٣) ..

إن زهادة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ هنا هى زهادة القادر الميسور وليست تقشف المحروم المقهور. أو بتعبير آخر هى « الزهادة الإرادية » لا « الزهادة الاضطرار ية الاستسلامية » . ولا أقصد بذلك أنه كان غنيا واسع الثراء ، ومال ــ على ثرائه ــ إلى جانب الشظف والزهد والتقشف . ولكنى أقصد أن الله عرض عليه الدنيا بحلوها وروائها .. عرض عليه ــ بصوت جبر يل ــ أن يجعل له الأخشبين ذهبا فاختار جانب المساكين .. إختار جانب الكفاف حتى لا تشغله متع الحياة عن أصحابه الغُراليمامن .. حتى لا تشغله حلاوة الدنيا عن مرارة الجوع الذى يمزق قلوبا وأكبادا ، وهو القائل « **ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس** »(٤) ..

---

(١) البخارى ٨ / ٣١ كتاب الأدب
(٢) الشفا ١ / ٢٠٤
(٣) الشفا ١ / ٢٣٣
(٤) البخارى ٨ / ١١٨ (كتاب الادب)

وحينا مالت نفسه بعض الميل عن الفقراء إلى بعض أغنياء قريش طمعا فى إسلامهم ، وكان شرطهم أن يخلو مجلسه من هؤلاء الفقراء نزل قوله تعالى ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ (١)

وحينا كان النبى عليه السلام مشغولا بأمر جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام جاءه عبد الله بن أم مكتوم الفقير الأعمى ــ وهو لا يعلم أنه مشغول بأمر القوم ــ يطلب منه أن يعلّمه مما علّمه الله ، فعبس فى وجهه وأعرض عنه لأنه شغله عن القوم الذين كان يطمع فى أن يقوى الإسلام بدخولهم فيه ، فنزل القرآن يُعاتب الرسول عتابا شديدا و يقرر حقيقة القيم فى حياة الجماعة المسلمة فى أسلوب قوى حاسم ، كما يقرر حقيقة هذه الدعوة وطبيعتها :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾ (٢)

وصار ابن أم مكتوم من أحب الناس إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ واستخلفه على المدينة ، وعلى الصلاة بها حينا خرج لقتال المشركين فى بدر(٣).. واستخلفه مرة أخرى حين خرج لغزوة قرارة الكدر(٤) وقر به إليه يوم فتح مكة وجعله بين يديه وهو يسعى بين الصفا والمروة وكان ابن أم مكتوم ينشد :

(١) الكهف ٢٨ وانظر السيوطى أسباب النزول ٧٩ ــ ١١٥

(٢) عبس ١ ــ ١٦ وأنظر : السيوطى : أسباب النزول ١٧٩ ، قطب الظلال ٦/ ٣٨٢١

(٣) إمتاع الاسماع ٦٣

(٤) السابق ١٠٧

يا حبذا مكة من وادى ∴ أرض بها أهلى وعوادى
أرض بها أمشى بلا هادى ∴ أرض بها ترسخ أوتادى(١)

وكان النبى بعد ذلك إذا رآه هش له و بش وقال : **أهلا بمن عاتبنى فيه ربى .**

هذه هى طبيعة « الصبر المحمدى » .. صبر عن متع الحياة ولذائذها على سهولتها و يسرها لو أراد .. وصبر على الجوع والشظف وزهادة الحياة .... وصبر على إيذاء الكفار وجفائهم وكبرهم وعنجهيتهم فما انحنى وما استسلم .. وصبر مع أصحابه الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشى ير يدون وجهه .

• • • • •

وموقف النبى عليه الصلاة والسلام ــ من الفقراء والمساكين واحتفاؤه بهم فى مجالسه يشدنا إلى صفة أخرى من صفاته عليه السلام وهى « التواضع » : ارتعش رجل فى حضرته فقال له : « **هوّن عليك فلست بجبار ولا ملك ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد** »

نعم : لم يكن جبارا ولا ملكا ، فتواضع لله ، ورفعه الله ، خرج من مكة مهاجرا فارا بدينه، وعاد إلى مكة فاتحا ظافرا ، ولكن لم يأخذه زهو الفاتحين ولاجبروت الغزاة ، بل عزل أحد قواد الفتح وهو سعد بن عبادة ، حين استشعر شيئا من الزهو والخيلاء فقال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قر يشا وكان صوت النبوة أقوى وأعلى : **لا ياسعد ... بل اليوم يوم المرحمة ، اليوم تُقدَّس الحرمة ، اليوم أعزَّ الله قر يشا** (٢) .

ودخل النبى الفاتح مكة وهو يركب ناقته القصواء ، وقد أحنى رأسه على رَحْلِه تواضعا حتى كادت لحيته تمس الرحل من شدة التواضع ، وهو يقول : **لا عيش إلا عيش الآخرة**(٣) .

وقبلها اشترك مع المسلمين فى حفر الخندق ، وكان يحمل معهم التراب حتى يعلو الغبار وجهه ، و يعلق بلحيته ، وكان يشاركهم رجزهم و يرفع صوته بالرجز معهم (٤) .

إن المتواضعين هم أهل الجنة ، أما المتكبرون فهم حطب جهنم ، حدّث النبى ــ عليه السلام ــ أصحابه ذات يوم فقال : « **ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضاعف**

(١) السابق ٣٣٧
(٢) ابن هشام ٣ / ١٧ وإمتاع الأسماع ٣٧٥
(٣) أنظر إمتاع الأسماع ٣٣٧
(٤) ابن هشام ٢ / ١٤٣

لو أقسم على الله لأبرَّه . ألا أخبركم بأهل النار؟ كلّ عُتُلّ جَوَّاظ مستكبر»(١) ..

وعلام يغتر الآدمي و يستبد به الكبر؟ إن كان كبره لقوة بدنه فمرض ساعة يهدم قوة سنوات . والموت يحول الإنسان في لمحة من نبض الحياة إلى خمود التراب.أيتكبر لمال أصاب ؟ إن المال أغلاه وأعلاه الملك ، والله هومالك الملك يؤتى الملك من يشاء ، و ينزع الملك ممن يشاء ، و يعز من يشاء و يذل من يشاء .

هل كان في الأرض أعتى من قارون ؟ استبد به غرور المال .. فأوصله غروره إلى بغى الكفر .. وانتهى به كفره إلى الدمار

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ
مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا
تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ
فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي
أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً
وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ
فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ
قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ
اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا
بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ
اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا

(١) البخاري ٨ / ٢٤ (كتاب الأدب ــ باب الكبر)

﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١)

إنها قصة الكبر الذى يتنكر للقيم الإيمانية فى كل عصر .. فينسى الآدمى بشريته ، ويحاول أن ينازع الله حاكميته ثم تكون الفاجعة الحتمية والانكسار الذى لا قيامة منه ..

وكل عصر لا يخلو من « قارونه » أو « قوارينه » . ولو تدبَّر الإنسان المتكبر قصة قارون كما أوردها القرآن لخلع نفسه من حمأة الغرور، وعاش إنسانا « رفيعا » بفضيلة التواضع .

ولعل أشد ألوان الكبر ماجاء من ناحية النسب .. من جهة الآباء والأجداد . وقد عالج أبو حامد الغزالى هذا النوع من الغرور بقوله : فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليُدَاوِ قلبه بمعرفة أمرين :

أحدهما : أن هذا جهل من حيث أنه تعزز بكمال غيره ، ولذلك قيل :

لئن فَخَرْتَ بآباءٍ ذَوى شرف .:. لقد صَدقْتَ ولكنْ بئْسَ ماوَلَدُوا

فالمتكبر بالنسب إن كان خسيسا فى صفات ذاته ، فمن أين يجبر حسنَه بكمال غيره ، بل لو كان الذى ينسب إليه حيا لكان له أن يقول « الفضل لى ومن أنت ؟ وإنما أنت دودة خلقَتْ من بولى . أفترى أن الدودةَ التى خلقَتْ من بول إنسان أشرف من الدودة التى خلقت من بول فرس ؟ هيهات بل هما متساويان ، والشرف للإنسان لا للدودة .

الثانى : أن يعرف نسبه الحقيقى فيعرف أباه وجده :

فإن أباه القريب نطفة قذرة ، وجده البعيد تراب ذليل .. فمن أصله التراب المهين الذى يداس بالأقدام ، ثم خُمر طينُه حتى صار حمأ مسنونا كيف يتكبر؟ وأخس الأشياء ما إليه انتسابه . إذ يقال يا أذل من تراب ، و يا أنتن من الحمأة ، و يا أقذر من المضغة . فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول افتخر بالقريب دون البعيد .. فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب ، فليحقر نفسه بذلك . ثم إن كان ذلك يوجب رفعه لقربه فالأب الأعلى من التراب ، فمن أين رفعته ؟ وإن لم تكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده ؟ فإذا أصله من التراب ، وفصله من النطفة ، فلا أصل له ولا فصل ، وهذه غاية خسة النسب . فالأصل يوطأ بالأقدام، والفصل تغسل منه الأبدان ، فهذا هو النسب الحقيقى للإنسان ، ومن عرفه لم يتكبر بالنسب (١) ..

(١) القصص : ٧٦ / ٨٣ . فبغى عليهم : ظلمهم أو تكبر عليهم بغناه . لتنوء بالعصبة : لتثقلهم وتميل بهم . لا تفرح : لا تبطر بكثرة المال . القرون : الأمم . زينته : مظاهر غناه وترفه . ويلكم : زجر عن هذا التمنى . لا يلقاها : لا يوفق للعمل للمثوبة . و يكأن الله : نعجب لأن الله . يقدر: يضيق على من يشاء .

(٢) إحياء علوم الدين ١١ / ١٩٧٤

ومع أن محمدا هو خاتم النبيين ، وأكرم البشر على الله ، وإمام الأنبياء فى الإسراء إلا أنه ــ تواضعا منه عليه السلام ، رفض أن يفضل على سائر الأنبياء **«لا تفضلونى على يونسَ بن متى ، ولا تفضلوا بين الأنبياء ، ولا تخيرونى على موسى.ونحن أولى بالشك من ابراهيم ،ولولبثتُ مالبثَ يوسفُ فى السجن لأجبتُ الداعى»** (١) ..

وناداه أحد المسلمين ذات مرة « ياخير البرية » فقال **« ذاك ابراهيم »** (٢) .

وفى هذا المقام علينا أن ندرك أن بين الفضيلة والرذيلة خيطا رفيعا يجب أن نفتح أعيننا له حتى لا تَزِلَّ بنا أقدامنا ــ بحسن نية ــ من الحق إلى الباطل ، ومن الفضيلة إلى الرذيلة . و بصورة أكثر تحديدا علينا أن نعى أن بين فضيلة التواضع ورذيلة الضعة خيطا رفيعا ، جد رفيع : فالتواضع نزول من كبار النفوس وعظماء العقول إلى من هم أقل علما وفهما ، وأخفض منزلة وعيشا ، والتبسط معهم ومعالجة أمورهم ومحاولة الارتفاع بهم مكانا ووعيا ونظرا .

أما الضعة فهى فى إيجاز ــ إدعاء التواضع أو النزول إلى مستوى السفلة باسم التواضع . بينما حقيقة الأمر إذلال للنفس واحتقار لها فى سبيل هدف دنيوى رخيص خسيس .

كذلك الغرور أو الكبر إنه تعالٍ على خلق الله ، وزهو منفوش ، ونظر إلى بنى آدم من عَلٍ مع فقد فضائل النفس وصلاح القلب ونقاء الضمير ..

أما استعلاء الإيمان فيعنى الترفع على طينية الأرض والزهد فيما يتكالب عليه الناس و يريقون ماء الوجه من أجله ، إنه العزة التى ذكرها الله سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

فاعتزاز المؤمن بربه ودينه ونفسه يمنحه طاقة المواجهة : مواجهة الحياة بالعمل الطيب ، ومواجهة المحتاجين بكل عون شريف ومواجهة أعداء الدين والحق والوطن بالقوة والصلابة والشموخ ، ثم تكون العاقبة فى النهاية .. الحسنى التى ذكرها الله سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ
وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَـٰلِدُونَ (٢٦) وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ

(١) الشفا ١ / ٢٦٥
(٢) السابق نفس الصفحة
(٣) المنافقون ٨

ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ (١)

واستعلاء الإيمان .. يجعل الحقيقة الإيمانية فى نظر صاحبها أقوى وأثرى من أقطار هذه الأرض بما جمعت ، وتبعث فيه الحمية التى لا تعرف التوقف ولا المهانة فإذا هو الكاسب فى كل حال : إن انتصر فهذا كسب عظيم ، وإن استشهد فذاك كسب أعظم .

لذلك كان المؤمن من واقع هذه العزة ، ومن معين هذا الاستعلاء الإيمانى مطالبا بالتمسك بحقه وعدم التفريط فيه أو النزول عن بعضه .

لقد جاء مسيلمة الكذاب — كما ذكرنا من قبل — إلى المدينة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ومعه خلق كثير من بنى حنيفة . وكان مسيلمة بقوة شخصيته وقدرته على الاستهواء فى مركز القيادة منهم ، وكان بنو حنيفة من أقوى قبائل العرب وأعتاها وأمنعها .

قال مسيلمة « لو جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته » أشار النبى إلى قطعة جريدة فى يده وقال « **لو سألتَنِى هذه القطعةَ ما أعطَيْتُكَها ، ولن أتعدى أمرَ اللهِ فيك ، ولئن أدبرتَ ليعقرنَّكَ الله ..** »(٢)..

وكان النبى يستطيع أن يصانع هذا الزعيم القوى ولكن النبوة فى هذه الحال تكون قد تخلت عن « المنطق الإيمانى » فى الاستعلاء الذى يعتمد على المعين الربانى فى تصريف الأمور .

وعلى نفس الدرب — درب الاستعلاء الإيمانى — سار الصديق أبوبكر .. حين أصر على مقاتلة المرتدين لو منعوه عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله .

وعلى نفس الدرب سار عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فى مواجهة المَلِك الغسانى : جَبَلَة بن الأيهم حين أصر أن يلطمه الفَزارى الفقير كما لطمه(٣) .

وعلى الدرب نفسه سار عثمان بن عفان — رضى الله عنه — حين رفض أن يسلم أحد جنوده لعصابة السبئية والمأجورين الذين حاصروه يوم الدار ، وكان دمه ثمنا لموقف

(١) يونس ٢٦ ، ٢٧ . لا يرهق : لا يغشى . قتر : دخان معه سواد . عاصم : مانع من عذابه . أغشيت : كسيت وألبست .

(٢) مسلم ٥ / ١٣٢ (كتاب الرؤيا)

(٣) أنظر القصة كلها فى الأغانى ١٥/٥٤٦٥ — ٥٤٦٧ وفى سيرة عمر بن الخطاب للطنطاوى ٣٦٠ — ٣٦٥ .

استعلاء إيمانى يدركه أمثاله من الهداة المهديين (١) . .

وهو نفس الدرب الذى هوى فيه على بن أبى طالب شهيدا بعد أن رفض التهاون فى حق من حقوق الخلافة الرشيدة .

واستعلاء الإيمان يقتضى أن يكون المؤمن شجاعا فى الحق صريحا فى القول صادقا فى العزيمة لايعرف الانحناء والالتواء والخنوع والاستسلام والتهاون فى عزة النفس وشرف الذات .

وبهذا المفهوم لاستعلاء الإيمان ومن هذا المنطلق الواضح أرى من الأمانة أن نقف قليلا أمام حديث لرسول الله قد يثير شبهة عند البعض ، أو خلطا فى الفهم ، وكل ذلك لا أساس له إذا فهمنا الحديث فهما جيدا . ونص الحديث ــ وهو يروى عن عائشة رضى الله عنها ــ أن رجلا استأذن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلما رآه قال : بئس أخو العشيرة و بئس ابن العشيرة ، فلما جلس تَطَلَّق النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى وجهه وانبسط إليه ، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة : يارسول الله : حين رأيت الرجل قلتَ له كذا وكذا ، ثم تطلقت فى وجهه وانبسطت إليه . فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : **ياعائشة : متى عهدْتِنِى فحّاشا ، إن شر الناسِ منزلةً يومَ القيامةِ مَنْ تركه الناسُ اتقاءَ شره**(٢) .

فقد يتوهم متوهم أن موقف النبى السابق فى صورتيه يتعارض مع ماعرف عنه من جرأة فى الحق ووضوح فى أقواله وأفعاله . كموقفه مع مسيلمة الكذاب ، وقد يتوهم أن هذه المداراة تعد لونا من ألوان التنازل عن استعلاء الإيمان .

ودفعا لهذا الوهم أو هذه الشبهة علينا أن نعى مايأتى :

(١) ذكر الإمام النووى أن المعنىّ بهذا الحديث هو **عيينة بن حصن**(٣) . وقد كان من الأعراب الجفاة المؤلفة قلوبهم ، ومن جفائه أنه دخل على النبى من غير إذن فقال له : أين الإذن ؟ فقال : ما استأذنت على أحد من مُضَر .

وكان ممن ارتد وتبع طليحة الأسدى ، وقاتل معه ، فأخذ أسيرا . وحمل إلى أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ فكان صِبْيان المدينة يقولون : ياعدو الله أكفرت بعد إيمانك ؟ فيقول : ماآمنت بالله طرفة عين .

---

(١) راجع عثمان بن عفان للدكتور هيكل ١١٥ ــ ١٢٤ . والجندى المشار إليه هو كثير بن الصلت الكندى أحد الذين دافعوا عن عثمان وهو محاصر فى بيته . وقد طلب المحاصرون تسليمه فرفض عثمان وقال : « لم أكن لأقتل رجلا نصرنى وأنتم تريدون قتلى » فاقتحموا الدار وأشعلوا النار فى بابها وسقيفتها وقتلوا عثمان .

(٢) البخارى ٨ / ١٦ (كتاب الأدب) ومسلم ٥ / ٤٥٢ (كتاب البر والصدقة والآداب) .

(٣) شرح النووى على صحيح مسلم ٥ / ٤٥١

ودخل على عمر مرة فقال له : ياابن الخطاب ، والله ماتقسم بالعدل ولا تعطى الجزل .
ومع أن عثمان بن عفان كان قد تزوج ابنته إلا أنه دخل عليه ذات يوم ، وأغلظ له القول وأساء معه الأدب (١) .
فتاريخ الرجل يقطع بصدق وصف النبى عليه السلام له .

(٢) انبساط النبى — صلى الله عليه وسلم — له وطلاقته و بشاشته فى وجهه والإنة القول له إنما كان تألفا له ولأمثاله على الإسلام .

(٣) عرف النبى صلى الله عليه وسلم — بالحياء والأدب والبشاشة والتبسم فى وجوه الآخرين حتى الذين يسيئون إليه . عن قيس بن جرير قال : « ماحجبنى النبى — صلى الله عليه وسلم — منذ أسلمت ، ولا رآنى إلا وتبسم فى وجههى » (٢) . وقصص إحسانه إلى من أساء إليه أكثر من أن تحصى .
فاستقباله لعيينة بهذه الطريقة إنما هو من باب الأدب والحياء وإكرامه لمن قصده ، وذلك لايتعارض مع وصفه للرجل بما وصف . يقول النووى « ولم يمدحه النبى — صلى الله عليه وسلم — ولا ذكر أنه أثنى عليه فى وجهه ولا فى قفاه ، إنما تألفه بشىء من الدنيا مع لين الكلام (٣) ..

(٤) ولا تعارض بين بشاشة النبى ولينه فى القول مع عيينة ، وشدته فى القول مع مسيلمة الكذاب لأن الأول لم ينل بكلامه من أصل العقيدة ونظام القرآن والإسلام فى حياة النبى على الأقل ، لذلك كان النبى يأمل دائما أن ينتفع الإسلام بهذا الأعرابى الجافى القوى الشجاع وهو الذى وصف فى التاريخ بأنه من « الزعماء أو القادة الجرارين » أى القادرين على الاقتحام ، لذلك كان النبى دائما يحاول كسر العنجهية فيه ، وتحطيم الساتر الصفيق الذى يقف به عند العتبة الأولى من عتبات الإسلام فأعطاه من سهم المؤلفة قلوبهم ....
وكذلك أبوبكر الصديق ، ولو أنه نفع الإسلام بطاقته وشجاعته لكان قائدا عظيما فى سلسلة القادة العظام ، مثل سعد وخالد وعمرو بن العاص ، ولكنه وقف بإسلامه عند أولى العتبات .. ومات مسلما على أية حال .

---

(١) أنظر أسد الغابة ٤ / ٣٣١
(٢) البخارى ٨ / ٢٩
(٣) مسلم السابق

أما مسيلمة فجاء إلى المدينة مساوما . يطلب مقابلا ضخما لإسلامه وإسلام قومه « إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته ».فالمسألة هنا فى حاجة إلى حسم قاطع لايعرف الملاينة أنها قضية من القضايا العليا ، وكان قول النبى هو الفيصل الحاسم ، رفع قطعة جريد فى يده وقال : لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن أتعدى أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله » .

وعاد مسيلمة إلى وطنه موكوسا منكوسا وادعى النبوة،وكتب لمحمد عليه السلام كتابا يقول فيه « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله : أما بعد فإنى قد أشركت معك فى الأمر ، وإن لنا نصف الأرض.ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم يعتدون » .

وكان رد النبى عليه « من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب .. فالسلام على من اتبع الهدى . أما بعد.فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

وانتهى أمره على ماهو معروف فى التاريخ ، قتل كافرا .. ومزق قومه فى موقعة اليمامة ، ولو استجاب النبى لطلبه أو بعض طلبه لكان فى ذلك تنازل عن « الاستعلاء الإيمانى » وحاشا للنبى أن يفعل ذلك فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

نعم إن الملاينة والشدة يصدران من محمد فى مواجهة رجلين جافيين غير سويين ، لا يدلان على تناقض فى طبيعة المعالجة ولكن يدلان على واقعية و بعد نظر ، إنه تصرف من يعطى الشخصية ماينا سبها ، ومن يعطى الموقف أنسب مايعطى من الأقوال والأفعال ، فالطبيب يلجأ إلى تضميد جرح وقد يشير بقطع العضو الجريح وهو فى كلتا الحالتين الطبيب البارع . والطبيب يشير على مريضه بالدواء المطلوب وقد يستجيب مريض ، و يتعصى على الدواء مريض فيمضى الأول فى طريق الشفاء ، وتتكالب على الثانى العلل والأدواء . والطبيب هو الطبيب براعة وذكاء وقدرة و بعد نظر .

* * * * * *

الرحمة . الأمانة . الحلم . الوفاء . الصبر . الزهد والتقشف . التواضع . العزة . واستعلاء الإيمان .... قليل جدا من كثير جدا من « قائمة القيم » التى كانت لهذا الرجل العظيم الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه . هذا الرجل العظيم الذى جمع كل هذه الخصائص والصفات ، لو لم يكن نبيا بأمر الله لكان نبيا بداعية هذه الشمائل الوضيئة العريضة . إنه كان وسيظل « المثل الأعلى » للبشرية فى كل العصور .. ولكن هذه « المثالية » أو هذه « العلوانية » هل كانت « ملائكية » أكبر من دنيا الناس وفوق طاقة البشر ؟

وفى مقام الإجابة عن هذا السؤال لنخرج من حسابنا « خصوصياته » عليه السلام ، فهى مما يدخل فى « مقام النبوة » وقد نهى النبى ــ عليه السلام ــ عن التمثل به فيها ، وشدد فى هذا النهى .

ولنخرج من حسابنا كذلك .. أمور المعاش التى تخضع للخبرة والعادات والتقاليد والأعراف ، فقد حدد النبى موقفه منها فى قوله « **أنتم أعلم بشئون دنياكم** » الزراعة . الصناعة .. المأكل .. المشرب .. السفر . كلها أمور تخضع لقواعد الاجتهاد والتطور على مدار الزمن بشرط ألا تصطدم بقاعدة من قواعد الشريعة الغراء .

يبقى بعد ذلك هديه عليه السلام فى العبادات والحرب والسلم وقواعد الحكم والشورى ، وقواعده السلوكية انعكاسا لخصائصه الخلقية العظيمة من صدق وشجاعة وكرم وعفة ... الخ وكل ذلك نحن مطالبون به . وهو فى كل ذلك كان خير تجسيد « للمثالية الواقعية »... خير تجسيد « للوسطية العادلة » .

وتأكيدا لنفى « يوتوبية المثال » أو خياليته كان تركيز القرآن الكريم على « بشرية محمد » : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (١)

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢)

وبهذه « البشرية » يتصدى محمد ــ بأمر ربه ــ للكفار حين يطلبون مقابل إيمانهم به .. يطلبون « قائمة » قد تكون سهلة هينة على الله ولكنها فوق طاقة « البشر » من ناحية ، وتحقيقها لن يخدم قضية الإيمان من ناحية أخرى :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (٣)

---

(١) الكهف ١١٠

(٢) فصلت ٦

(٣) الإسراء ٩٠ــ ٩٣ . ينبوعا : عينا لاينضب ماؤها . كسفا : قطعا . قبيلا : مقابلة وعيانا أو جماعة . زخرف : ذهب .

ومن منطلق هذه « البشرية » .من منطلق هذه « المثالية الواقعية » كان الأمر بطاعة الرسول ، وهى طاعة تدخل فى حدود الإمكان :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ (١)

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (٢)

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٣)

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ (٤)

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ (٥)

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ (٦)

فجعل تعالى طاعة رسوله طاعته ، وقرن طاعته بطاعته ، ووعد على ذلك بجزيل الثواب ، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب ، وأوجب امتثال أمره واجتناب نهيه ..

قال المفسرون والائمة : طاعة الرسول فى التزام سنته والتسليم بما جاء به .. وقالوا ما أرسل الله من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليه.وقالوا : من يطع الرسول فى سنته يطع الله فى فرائضه ، وسئل سهل بن عبد الله عن شرائع الإسلام فقال : « وما أتاكم الرسول فخذوه » وقال السمرقندى : يقال : أطيعوا الله فى فرائضه والرسول فى سنته .. وقيل أطيعوا الله فيما حرم عليكم والرسول فيما بلغكم ، و يقال : أطيعوا الله بالشهادة له بالربوبية ، والنبى بالشهادة له بالنبوة (٧) .

• • • • •

---

(١) الأنفال ٢٠

(٢) النور ٥٤

(٣) آل عمران ١٣٢

(٤) النساء ٨٠

(٥) الحشر ٧

(٦) النساء ٦٩

(٧) أنظر الشفا ٢ / ١٧ — ١٨

وأيا كان التفسير فالأقوال كلها تلتقى على ضرورة طاعة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وأن طاعته من طاعة الله ، ولايستقيم إسلام من يفرق بين الطاعتين و يذهب مذهب من يقول عندنا كتاب الله يكفينا .

فإذا ما آمنا بأن مثالية الرسول كانت « مثالية واقعية » وأن طوابعه الأخلاقية تمثل « علوانية أرضية » ، وأننا مأمورون بطاعته على مدى العصور .. وإلى الأبد بحكم عمومية الرسالة وخاتمية النبوة ، فإن إيماننا بكل ذلك يقودنا إلى أول ملمح من ملامح المنهج المحمدى فى غرس القيم فى نفوس المسلمين ، وهو أنه — عليه السلام — كان قدوة عملية صالحة للمسلمين : مانهى عن شىء وأتاه ، وما أمر بشىء إلا وكان أسرع الناس إلى القيام به .

وحينما شرعت الصلاة كان اول ماقال : **صلوا كما رأيتمونى أصلى .**

وفى ساعات الفزع كان هو أسرع الناس إلى النجدة والتصدى وإغاثة الملهوف : فزع أهل المدينة ليلة لصوت رهيب . وجلبة عاتية مزقت نياط الليل البهيم ، فانطلق أناس قِبَل الصوت ، فتلقاهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — راجعا قد سبقهم إلى الصوت ، وقد استبرأ الخبر على فرس لأبى طلحة عرى ، والسيف فى عنقه وهو يقول : « **لن تراعوا** »(١) ..

قال على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — إنا كنا إذا حمى البأس واحمرت الحَدَق اتقينا برسول الله — صلى الله عليه وسلم — فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، وقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى — صلى الله عليه وسلم — وهو أقربنا إلى العدو ، وكان أشد الناس يومئذ بأسا (٢) .

وكان عليه السلام — قدوة مثلى لا فى مواقع النصر — فحسب — ولكن فى محن الانكسار : فى أحد اشتد الكرب بالمسلمين وانكشفوا عنه بعد أن خالفوا أمره .. وخلص إليه الكفار .. فكسرت رباعيته ، وشج وجهه وجرحت شفته ومع ذلك ثبت فى موقعه مع قلة من المؤمنين تعد على أصابع اليد الواحدة ، وتمكن — ودمه يغطى وجهه — من قتل رأس من رءوس الكفر هو أبى بن خلف طعنه رسول الله برمح فى عنقه .. و بلغ من فزعه أن قال وهو يحتضر : فوالله لو بصق علىّ محمد لقتلنى » (٣) .

وفى المرحلة الأولى من غزوة حنين حين اشتد الزهو بالمسلمين وأعجبتهم كثرتهم .. انحدرت عليهم هوازن .. وانكشف الكل عن رسول الله إلا القلة القليلة .. ووقف محمد قدوة

---

(١) أنظر الشفا ١ / ٢٣٨ (عرى : أى بلا سرج . لن تراعوا : أى لن تفزعوا لأنه ليس هناك مايفزع) .

(٢) السابق ١٣٧ (احمرت الحدق : كناية عن الشعور بالشدة والبلاء . نلوذ : نتقى ونحتمى)

(٣) راجع بن هشام ٢ / ٢١ — ٢٥

فى الثبات والشجاعة وهو ينادى الكثرة المفزوعة « أين أيها الناس ؟ هلموا إلى ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله (١) ..

وفى الخندق — كما ألمحنا فى الفصل السابق — كان يحضر مع أصحابه ويحمل معهم التراب والغبار يغطى وجهه ولحيته ، وهو يشاركهم أهازيجهم وأرجازهم .

نعم : بالقدوة الحسنة استطاع النبى أن يغرس قيم الإسلام فى نفوس أصحابه ، وأن يعمق فى نفوسهم حب الحق والخير والشجاعة والوفاء والإخلاص .

وليس هناك مايهز الإيمان بالقيم الإنسانية مثل الانفصام بين « الداعى » و« المدعوين » بين « المُعلِّم » و« المريدين » بين الدعوة والتنفيذ .. بين القول والعمل ، وهذا هو الذى نعاه الله — سبحانه وتعالى — على بنى إسرائيل :

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢)

عن أسامة بن زيد — رضى الله عنهما — قال سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : **يُؤتى بالرجُل يومَ القيامة فيُلقَى فى النار فيقولون : يافلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروفِ وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى : قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهىَ عن المنكر وآتيه » (٣) ..**

والداعية حين يكون قدوة حسنة للناس فيما يدعو إليه إنما يقدم بذلك الدليل العملى على « واقعية » الدعوة ، وإمكانية أخذ الناس أنفسهم بها ، فيسعى الناس إليها هرولة ، و يزيد المؤمنون بها إيمانا .

وكم أخفقت دعوات — على بريقها ورواء مبادئها — لأن قيادتها ودعاتها لم يكونوا للناس أسوة وقدوة ، فكانوا كبنى اسرائيل .. أمروا الناس بالبر ونسوا أنفسهم .

● ● ● ● ●

وملمح ثان من ملامح المنهج التربوى المحمدى وهو استغلال الوقائع والأحداث للتوجيه والإرشاد : أمرا بالخير والحق ونهيا عن الشر والباطل ، والنبى عليه السلام فى مثل هذه الحال كان ينطلق من الخاص إلى العام ومن الفردى إلى الجماعى .

وربْط التوجيه بالواقعة يوضح طبيعة التوجيه و يقنع الناس به من ناحية،و يكتب لهذا التوجيه الاستقرار والديمومة من ناحية أخرى ، وذلك لارتباطه بحدث يسهل تذكره واستعادته ، فهو نوع من ربط التجريدى بالمحسوس وكأنما الحدث هنا يقوم بالدور الذى تقوم به « الوسائل التعليمية » فى عملية التعليم .

---

(١) أنظر السابق ٣ / ٥٠ (٢) البقرة ٤٤ (٣) مسلم ٥ / ٨٣٧ (كتاب الزهد)

عن حكيم بن حزام قال : سألت النبى — صلى الله عليه وسلم — فأعطانى ثم سألته ، فأعطانى ، ثم سألته ، فأعطانى ، ثم قال لى ياحكيم : **إن هذا المال خَضِرةٌ حُلوة فمن أخذه بطيب نفس بُورك له فيه ، ومن أخذه بإشرافِ نفس لم يُبارَك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولايشبع ، واليدُ العليا خَير من اليدِ السفلى » (١) ..**

فالواقعة الخاصة هنا .. واقعة مسلم متطلع إلى المال منهوم بحبه فليعطه الرسول حتى يسكن وحش النهم ولو إلى حين .. ثم بعد ذلك ليأت دور القيم الخالدة : على المسلم أن يتحلى بالرضا والقناعة وعفة النفس والاعتماد عليها فى التكسب ، وليتسع المقام كذلك لتقرير قاعدة اقتصادية واجتماعية وانسانية وهى : اليد العليا خير من اليد السفلى .. المعطى خير من الآخذ.ولننظر فى مجتمعاتنا المعاصرة : إن الدولة التى تعطى المنح وتمنح القروض والمعونات هى اليد العليا .. هى صاحبة المكانة العظمى بين الدول والمجتمعات . أما الدول الآخذة فهى المتخلفة أو « النامية » تأدبا ... هى اليد أو الأيدى السفلى التى تمد دائما لتسعد — ولو إلى حين — بالعطاء الساقط من اليد أو « الأيدى » العليا .

وحينما تسرق المرأة المخزومية « الشريفة » وحين تشعر قريش بأنها ستُحد يصيبها الفزع وتهرع إلى الحِب .بن الحِب أسامة بن زيد ليشفع لها عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — و يغضب الرسول و يقول مستنكرا : « **أتشفعُ فى حد من حدود الله ؟!! ثم قام فخطب قائلا « يا أيها الناس ، إنما ضَلَّ من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وأيمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يَدَها » (٢) .**

الناس أمام القانون سواء .. المراكز الاجتماعية لا تعطل قوة القانون ، التفريق فى المعاملة القانونية أدى و يؤدى إلى ضياع الأمم وهلاكها .

مبادىء وقواعد عظيمة قررها الرسول عليه السلام — بمناسبة خطيئة وقعت فيها امرأة من علية القوم .

• • • • •

فالنبى كان يعتمد على الواقع المشهود فى تقرير المبادىء الإنسانية.وقريب من هذا أنه كان يستعين بالأمثال والقصص والأشباه والنظائر لتقرير مايحرص على غرسه فى نفوس أصحابه من قيم . والسنة غاصة بالأمثلة التى تدور فى هذا الفلك نكتفى منها بنموذجين :

---

(١) البخارى ٨ / ١١٦ (كتاب الأدب)

(٢) البخارى ٨ / ١٩٩ (كتاب الحدود) . الحب ابن الحب (بكسر الحاء) أى الحبيب ابن الحبيب ، وكان النبى عليه السلام يحب أسامة وأباه زيدا حتى كان المسلمون يطلقون عليه : زيد بن محمد .

- عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « **بينا رجل بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج ، فإذا كلبٌ يلهثُ يأكلُ الثرى من العطش فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغَ منى ، فنزل البئر فملأ خُفّه ماء . فسقى الكلبَ فشكر الله له فغفر له ،** قالوا يارسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجرا : فقال **فى كل ذاتِ كَبِد رطْبة أجْر** » (١) ..

- و يروى عنه عليه السلام أنه قال « **مَثَلُ القائم فى حدود الله والواقع فيها كَمَثَل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة ، فصار بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم ، فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خَرْقًا ، ولم نُؤْذِ مَنْ فوقَنا !! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجواونجواجميعا** » (٢) ..

وهذا الحديث يبرز أهمية الشعور بالمسئولية الاجتماعية و بوحدة المصلحة فى المجتمع كله ، وهى مسئولية كل فرد فى الأمة مهما صغر موقعه الوظيفى فى المجتمع . ولكن المسئولية تعظم بالنسبة للقائمين على أمر الأمة وقيادة سفينتها ، وهذا الشعور الجماعى بالمسئولية يحتم على كل فرد أن يكون صالحا فى ذاته من ناحية ، وأن يمنع المنكر والانحراف – بقدر طاقته – من ناحية أخرى ، غير مستهين بما يرى من مظاهر الفساد مهما كان ضئيلا فمعظم النار من مستصغر الشرر . وصدق الشاعر العربى إذ قال :

إذا نحنُ طامنّا لكل صَغيرة ∴ فلابدّ يوما أنْ تُساغ الكبائرُ

●●●●●

ومن أهم ملامح التوجيه النبوى – وقد أشرنا إلى ذلك من قبل أنه عليه السلام – لم يكن يواجه المخطىء بخطئه – إلا إذا وجد للمواجهة ضرورة من دين أو خلق – بل كان يجعل الخطاب بضمير الغائب ، و بصيغة الجمع غالبا ، ويسمع من الجميع – « **ما بال أقوام يفعلون كذا .. وكذا ..** » .

استعمل عليه السلام رجلا من الأَسْد يقال أنه ابن اللتبية فلما قدم قال هذا لكم وهذا لى ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : **ما بال عامل أبعثُه فيقولُ هذا لكُم ، وهذا أُهْدِىَ إلى ، أفَلا قَعَدَ فى بيتِ أبيه أو فى بيتِ أمّه حتى ينظرَ أيُهدى إليه أم لا ، والذى نفسى بيده لاينالُ أحدٌ منكم منها شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه** » (٣)

---

(١) البخارى ٣ / ١٧٣ (باب الآبار)

(٢) البخارى ٨ / ١٩٠ (كتاب الحدود)

(٣) مسلم ٤ / ٤٩٧ (كتاب الأمارة) الاسد (بتسكين السين) أو الأزْد ، وكان الرجل من قبيلة أزدشنوءه .

والنبى بهذا الأسلوب غير المباشر فى التوجيه يدل على أنه عليه السلام ــ كان يحترم آدمية الإنسان، وعلى أن الهدف من التشريع هو الإصلاح لا التشهير. والتشهير بالمخطىء قد يدفعه إلى الإصرار على السير فى طريق الخطأ والخطيئة، وقد غضب النبى عليه السلام على خالد بن الوليد حين سب الغامدية وهو يقيم عليها حد الرجم لزناها.

ومسلك النبى هذا انعكاس عملى لفضيلة نفسية عرفت عنه وهى عفة اللسان وصونه من الهُجْر والفحش والبَذاء حتى فى حق الأعداء: حينما شج يوم أحد وسال دمه وكسرت رباعيته قال له أصحابه (لو دعوت عليهم) فقال: **« إنى لم أبعث لعانا، ولكنى بعثت داعيا ورحمة، اللهم اهْدِ قومى فإنهم لا يعلمون »** (١)..

● ● ● ● ●

وكان المسلمون يلجئون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتونه و يسألونه فيما يعن لهم من أمور الدين والدنيا، وكثيرا ما كان القرآن يتكفل بالإجابة وقد أورد القرآن الأسئلة والإجابات عليها فى خمسة عشر موضعا منها:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ (٢)

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (٣)

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤)

---

(١) الشفا ١ / ٢٢١

(٢) البقرة ٢١٥

(٣) المائدة ٤ الجوارح: الكواسب للصيد من السباع والطير. مكلبين: معلمين لها الصيد.

(٤) الأعراف. أيان مرساها: متى إثباتها ووقوعها. يجليها: يكشفها و يظهرها. حفى عنها: عالم بها.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١)

ويلاحظ أن أغلب هذه الآيات مدنية ، وأن سورة البقرة ــ وهى أول السور المدنية نزولا ــ أعمر السور بالأسئلة والأجوبة ، إذ كان المسلمون يتطلعون إلى معرفة الكثير فى المجتمع الإسلامى الجديد الذى كان يمثل الأساس القوى للدولة الإسلامية الوليدة .

وإذا لم يقدم القرآن الجواب على مايطرحه المسلمون من أسئلة . كان النبى عليه السلام يجيبهم بما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم ، وكان يعطى لكل سؤال حقه من الإجابة : إيجازا أو تفصيلا تبعا لمقتضيات الحال ، والإجابة دائما شافية كافية بحيث لايترك النبى السائل وفى نفسه أثارة من حرج ، أو أثارة من جهل بأى جانب من جوانب الموضوع الذى يسأل عنه .

سأله رجل ذات مرة: يارسول الله : أأستأذن على أمى ؟ فقال : نعم . قال الرجل : إننى معها فى البيت . فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ استأذن عليها ، فقال الرجل : إنى خادمها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : استأذن عليها . أتحب أن تراها عريانة ؟ قال : لا . قال : فاستاذن عليها(٢)

هكذا بصدر رحب وإنسانية صافية يقنع الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل مثيرا فيه عاطفة « البنوة » التى تكره أن ترى من الأم مايسىء إليها وإليه .

• • • • •

وآخر هذه الملامح التربوية فى تعليم الدين والحياة والخلق أن يضع النبى نفسه موضع السائل على سبيل ما يسمى « بتجاهل العارف » والمسلمون يجيبون.فإن كانت الإجابة سديدة أقرَّها . وإن كانت الإجابة غالطة صححها،وأبان عن الصواب.وإن كانت الإجابة ناقصة أكملها . ومن أمثلة ذلك :

* عن أبى بكرة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **« ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟** قلنا بلى يارسول الله . قال : **الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين** (٣) .

* عن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **« أخبرونى بشجرة مثلُها مثلُ المسلم تُؤتى أكُلَها كلَّ حين بإذنِ ربها ، ولا تَحُتُّ وَرَقَها »** فوقع فى نفسى أنها النخلة ..(٤) .

(١) الأنفال وأنظر البقرة ١٨٩ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، الإسراء ٨٥ ، الكهف ٨٣ ، طه ١٠٥ ، النازعات ٤٢ ، والأنفال : الغنائم ..
(٢) الموطأ ٥٩٧ (كتاب الاستئذان)
(٣) البخارى ٨ / ٤ (كتاب الأدب) عقوق الوالدين : مخالفتها وعصيانها والإساءة إليها .
(٤) السابق ٣٩ (تحتّ ورقها : أى تسقطه وتزيله)

* عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قَدِمَ على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بِسَبْي .. فإذا امرأة من السبى تبتغى إذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — **« أترَوْنَ هذه المرأةَ طارحةً ولَدَها فى النار؟** فقلنا لا والله وهى تقدر على ألا تطرَحه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — **« الله أرحم بعباده من هذه بولدها »** (١) ..

* ومن الأسئلة التى طرحها النبى على المسلمين وجاءت إجاباتها غالطة فصححها : سؤاله عن الصُرَعَة فكان الجواب إنه الذى يغلب هذا و يصرع ذاك . قال النبى : **« ليس الشديد بالصُّرَعَة إنما الشديدُ من يملك نفسه عند الغضب »** .

وكذلك سؤاله عن المفلس : جاءت إجابتهم بأنه من لا درهم له ولا متاع.و يصحح النبى هذا المفهوم الغالط : **إن المفلسَ مِن أمتى مَنْ يأتى يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيام وزكاة ، و يأتى وقد شَتَمَ هذا وسفك دَمَ هذا وضَرَبَ هذا ، فيعطى هذا من حسناتِه وهذا من حسناتِه ، فإن فنِيَتْ حسناتُه قبل أن يَقْضِىَ ماعليه .. أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه ثم طُرِحَ فى النار.**

والسنة الشريفة حافلة بهذا اللون الذى يقوم على طريقة « السؤال والجواب ». وسواء أجاءت إجابة المسلمين كاملة شافية ، أو ناقصة وأكملها النبى عليه السلام ، أو غالطة وطرح النبى عليه السلام البديل الصحيح يخلص النبى عليه السلام إلى القيمة الدينية أو الخلقية أو الحقيقة الاجتماعية أو الدرس النفسى الذى حرص أن يعيه المسلمون بهذه الطريقة فى التعليم والتربية .

وهذا الاتجاه النبوى يتفق مع أحدث الطرق وأنجحها فى التعليم وهى ما تسمى « بالطريقة الاستنباطية » وهى الطريقة التى تعتمد على عرض الأمثلة المساعدة ، ومن فهم هذه الأمثلة واستيعابها والموازنة بينها تستخلص القواعد والحقائق المنشودة .

ومن أصول هذه الطريقة اعتمادها على « طرح الأسئلة المنتجة » التى يصل بها المعلم عن طريق التلاميذ إلى حقائق الدرس سواء أكانت حقائق جزئية فى مراحل الدرس المختلفة ، أو حقائق كلية فى آخر مرحلة من مراحل الدرس .. ومن أهم قواعدها أن يحرص المدرس على إثارة كوامن المعارف والخبرات المختزنة عند التلاميذ للانتفاع بها فى الخلوص إلى الحقائق التى يهدف إليها المعلم .

---

(١) مسلم ٥/ ٩٧ (كتاب التوبة) . السبى : جماعة الأسرى .

نعم كانت « الطريقة الاستنباطية » فى التربية إحدى طرائق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلها تهدف دُون تعنت أو تعسف إلى خلق المسلم الصالح الذى يجمع بين الدين والدنيا... بين العلم والعمل بين الحق والواجب .

● ● ● ● ●

و بعد هذه المسيرة نعود فنكرر أن السيدة عائشة لم تبالغ حين قالت عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان خلقه القرآن : "يرضى برضاه و يسخط بسخطه". فقد كان مجموعة من القيم الإنسانية فى أرقى صورها من ناحية ، وأصلحها للتطبيق من ناحية أخرى .

واستطاع أن يغرس هذه القيم فى أعماق الرعيل الأول متبعا منهجا واضحا محدد الملامح والسمات :

- فكان قدوة حسنة يسبق فعله قوله.
- واتخذ من الأحداث وسيلة لتقويم أخلاق المسلمين وتربيتهم .
- واستعان فى سبيل ذلك بالقصص والأمثال .
- واستعان بطريقة التوجيه غير المباشر حتى لايشهر بالمخطىء .
- وفتح صدره للمسلمين يسألون و يستفتون وهو يجيب عن كل مايسأل حتى ماكان تافها لاقيمة له فى مسيرة المجتمع .
- واستعان ـ وهو أستاذ الحياة ـ بأسلوب المعلم الذى يسأل تلاميذه ومريديه ليخلصوا للحق والحقيقة فى مجال النفس والخلق والمجتمع .

وكانت الحصيلة جماعة من الأنجم الزواهر .. أشرقت بنور الله فى مشارق الأرض ومغاربها فإذا الظلم والباطل بلا صولة ولا جولة ولا صولجان. وبهذه الجماعة صارت كلمة الله هى العليا وكلمة الباطل والكفر والضلال فى أسفل سافلين ..



الفصل الرابع

شبهات على الطريق

الحقيقة واضحة .. الحقيقة دامغة .. ولكن أصوات الشبهات المنكرة لا تكل ولاتهدأ .. بعض هذه الأصوات مدفوع بسوء النية وضعف الوازع الإيمانى ، و بعضها متأثر بالفكر العلمانى .. منبهر متعبد لكل ماهو غربى أو أجنبى ، و بعضها يجرى وراء شهرة جوفاء على طريقة « خالف تعرف » .

وأيا كان الدافع الظاهر أو الخفى فليس من همنا ــ فى بحثنا هذا ــ تقييم هذه الدوافع وتفصيل القول فيها ، ولكن يهمنا التعرف على أهم هذه الشبهات ومناقشتها فى إيجاز :

يرى واحد من كبار كتابنا « أن عنصر الأخلاق فى الأديان ليس كل جوهرها ، وأن بعض البلاد قد استطاعت أن تجد فى الأخلاق غنى لها عن الأديان : إنما قوة الدين وحقيقته فى العقيدة والإيمان بالذات الأزلية » (١) .

ونسى الكاتب المفكر ــ أو تناسى ــ أن الإيمان النقى بالذات الأزلية لايتحقق لمن لا خُلُق له ، وكيف يتحقق مثل هذا الإيمان لكذاب أو غادر أو زان أو قاتل .

والفصل بين الدين والخلق سيظل فصلا صناعيا واهيا ، لأن الدين هو أقوى المصادر وأغناها بالقيم الخلقية :

ــ فالإحساس الدينى هو أقوى الأحاسيس ، وسيظل أقواها وأعمقها لأنه يستمد بقاءه وقوته من الفطرة الإنسانية التى لا تموت ، وشعور التدين حتى فى أبسط صوره يُكسب الأخلاق بقاء وقوة و يربطها دائما بالذات الأزلية الخالدة .

ــ والذين يدعون إلى « علمانية » الأخلاق ينسون حقيقتين :

الحقيقة الأولى : أن القيم الاجتماعية عرضة للتغير والتقلب والهبوط والصعود ، تحت تأثير الأيديولوجيات الوضعية التى قد تعصف بكثير منها ، وقد تفرغ بعضها من مضامينه الحقيقية ، وقد تحول بعضها إلى النقيض . و يصبح المجتمع أسير « قائمة » جديدة من القيم لها دعاتها وفلاسفتها الذين يدعمونها بالحيثيات الوجيهة والتبريرات الطلية التى تطمس معالم الحقيقة .

---

(١) توفيق الحكيم : تحت شمس الفكر ١٦

الحقيقة الثانية : أن القيم الإسلامية ثابتة ولكنها غير جامدة ، مرنة ولكنها لا تقبل التميع .. تعرف السماحة ولكنها لا تقبل التهاون .

ولعل موقف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حلف الفضول الجاهلى ، واختلاف موقفه مع مسيلمة الكذاب عن موقفه مع عيينة بن حصن يوضح الفرق بين الثبات والأصالة و بين الجمود والتحجر ، والفرق بين المرونة والسماحة و بين التهاون والتفريط .

ـ واعتناق الأخلاق الدينية ـ ز يادة على مسايرته للفطرة الإنسانية ـ له مايؤيده من الواقع العملى التاريخى . ففى تاريخنا الإسلامى المثل الأعلى .. بل المثل العليا .. محمد وصحبه .. نعم كل قيمة أخلاقية لها واقع عملى فى سجل هؤلاء الأشراف ، وهذا السجل يعد « مرجعا عمليا » لمن أراد القدوة وطلب الأسوة واستشرف الاحتذاء .

ـ وحتى لو سايرنا منطق الماديين والعلمانيين الذين يخضعون الأشياء لمقياس المنفعة ، أو معيار « المكاسب والخاسر » ... حتى على هذا الاعتبار يبقى رصيدنا الخلقى الإسلامى « تجارة » لا تبور ولن تبور ، وتبقى حصيلة هذه التجارة فائقة دائنة أبدا ، لأن القيمة الخلقية فيها لا تنفصل ، بل تتلاحم بالقيمة الإيمانية . فالصدق والجهاد والكرم والتضحية وكل المعانى الإنسانية لايمكن أن يكون لها قيمة فى عزلة عن الإيمان ، يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

ونتيجة هذا التحلى ، وحصيلة هذا السلوك وذلك المسار هى أعظم النتائج فى الآخرة ، وأثرى الثمرات فى الدنيا .

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢)

---

(١) الصف ١٠ ، ١١

(٢) الصف ١٢ ، ١٣

وانه لربح ضخم هائل أن يعطى المؤمن الدنيا و يأخذ الآخرة ، فالذى يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من فى السوق فكيف بمن يتجر فى أيام قليلة معدودة فى هذه الأرض ومتاع محدود فى هذه الحياة الدنيا ، فيكسب به خلودا لايعلم له نهاية إلا ماشاء الله ، ومتاعا غير مقطوع ولاممنوع (١) ..

والله ـــ سبحانه وتعالى ـــ وسعت رحمته كل شيء ، وهو ذو الفضل العظيم على عباده .. يعطى أنى شاء وأيان يريد ، ولكن من عدله ومن رحمته بالعباد أيضا أنه جعل منطق الجزاء .. أى منطق الثواب والعقاب ومناصرته لعباده أو تخليه عنهم يعتمد على فكرة « المقابل المبذول » من العبد ، حتى لايتواكل استنادا الى سعة رحمته ـــ تعالى ـــ وعظيم عفوه وكرمه الذى لايُحَدُّ . وتأتى الآيات تترى تأييدا لهذا الميزان الذى لايميل ولايجور . ومنها :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٢)

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (٤)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (٥)

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ (٦)

﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ (٧)

---

(١) سيد قطب : الظلال ٦ / ٣٥٥٩

(٢) محمد ٧

(٣) الروم ٤٧

(٤) الأعراف ٩٦ (٥) التوبة

(٦) الإسراء ١٦

(٧) الكهف ٥٩

﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ (١)

وهذا المعيار الواضح المنضبط يجعل المؤمن مطمئن القلب ثابت الفؤاد لأنه يوقن بحق أن المقابل ليس عادلا فحسب ولكنه فياض كريم أيضا ، فهو يعلم أن :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢)

وقد يزيد الثواب على الأمثال العشرة حتى يبلغ مئات الأضعاف

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣)

●●●●●●

وكل ماسبق يبرز أمامنا حقيقة واضحة مؤداها أن الالتزام بالدين وأخذ النفس والمجتمع بقواعده وقيمه يضمن لنا كسوبا هائلة فى الدنيا والآخرة ، ولكن تبقى هناك عدة شبهات يتشبث بها المشككون فى القيم الدينية ، وهى فى مجموعها تكاد تكون واقعا ظاهريا مشهودا للشبهة الأساسية التى عرضنا لها فى مستهل هذا الفصل :

● فهناك من حققوا انتصارات عسكرية باهرة على الرغم من أنهم ملاحدة لايعرفون الله .. فالشيوعيون فى فيتنام الشمالية استطاعوا أن يكسروا أكبر وأقوى دولة فى العالم وهى أمريكا .

وأمريكا فى وقتنا الحاضر تعتبر سيدة دول العالم وصاحبة اليد العليا دائما فى القروض والمعونات الاقتصادية والعسكرية ، وصوتها هو أرفع الأصوات وأقواها فى المحافل والمنظمات الدولية .. هذه هى صورة أمريكا الآن على مافيها من موبقات وتمزقات خلقية فى مجال الجنس والخمر والمخدرات .

● وهناك شعوب وثنية أو لا دينية حققت فى مجال الثقافة والتقدم الصناعى والعلمى إنجازات مذهلة مثل اليابان والصين والهند .

---

(١) القصص ٥٩
(٢) الأنعام ١٦٠
(٣) البقرة ٢٦١

● وشهد هذا القرن وخصوصا ابتداء من أواخر الأربعينيات هزائم منكرة للعرب والمسلمين أصحاب أكرم الرسالات وأنبلها على أيدى عصابات الصهاينة الذين لا دين لهم ولا خلق .

● والربط بين الخلق وسلامة التدين وبين انتصار المسلمين وجعل الثانى نتيجة وحصيلة للأول قد ينقضه مانعرفه من حال الدولة الإسلامية فى العصر العباسى مثلا ... ففى عهد هارون الرشيد ــ وهو العصر الذهبى للدولة الإسلامية ــ تحققت إنجازات اجتماعية وانتصارات عسكرية هائلة على الرغم مما يروى عن « ليالى هارون الرشيد » وانتشار الخمر وعربدة الشعراء وفساد كثير من كبار رجال الدولة .

● والعصر الذى نعيشه الآن لايستسيغ الدعوة إلى إسلامية الخلق أو الهيمنة الدينية على السلوك والتربية والإعلام والسياسة ، بعد أن أصبح الطابع العلمانى يسود العالم كله . والأمة المصرية ــ بصفة خاصة ــ فيها ملايين من غير المسلمين،ومثل هذه الدعوة قد تسىء إلى مشاعرهم،وتدعو إلى الحرج والتطاحن والبغضاء .

● ● ● ● ●

هذه الشبهات فى مجموعها تعتمد على « الظاهر البراق » أكثر من اعتمادها على التحليل العميق للواقع والظواهر ، والأسباب والعلل والنتائج ، فكثير من هذه النتائج مازال يحبو على أول العتبات ، ومن ثم كان الحكم بأنها باهرة حاسمة نهائية فيه من الإسراف والغلو الشىء الكثير، و يكون الخروج بهذا الحكم من دائرته الخاصة ليأخذ صورة التعميم والشمولية خطأ قاتلا .

وانتصار الشيوعيين فى فيتنام على القوات الأمريكية لم يكن انتصار وثنية على إيمان ، ولكنه كان انتصار مظلوم مسحوق على ظالم غاصب ناهب . وحتى لو فرضنا جدلا أن هؤلاء انتصروا « بحماسة الإلحاد » فلماذا لانحاول نحن أن نخوض معاركنا بحماسة الحق والإيمان ؟ أليس الحق أقوى والإيمان الحى أبقى ؟

● ● ● ● ●

وأمريكا حقيقة هى دولة الجنس والخمر والأفيون والحشيش والحبوب المخدرة . وفى تقرير رسمى نشر فى أمريكا سنة ١٩٧٩ ثبت أن عدد الذين يتعاطون المخدرات يزيد على ٦٪ من عدد سكان الولايات المتحدة (١) ، ومع ذلك فأمريكا هى أمريكا .. أقوى دول العالم اقتصاديا وسياسيا وعسكريا مما يؤكد أن السلوك الخلقى يرتبط أساسا بالحرية الشخصية ، وأن ذلك لايؤثر بأى حال فى كيان الدولة ، ولايهز مركزها فى الداخل أو الخارج !!

---

(١) أنظر جريدة « الأخبار» القاهرية فى ٦/٤/١٩٧٣ .

هذا مايقوله أصحاب الهوى .. أو هذا ما يمكن أن يقولوه ، ولكن أشدهم حماسة لايستطيع أن يدعى أن المخدرات والخمر والجنس هى سبب التفوق السياسى والاقتصادى والعسكرى والاجتماعى فى أمريكا ، حتى لو زعم أن هذه الموبقات لا تنال من قوتها .

على أن هناك أصواتا قوية تدرك خطورة هذه السموم على الشعب الأمريكى ، وتنادى هذه الأصوات بمنعها ، أو على الأقل بأن تفرض عليها قيود أشد وأعتى . وقد ذكرنا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب أن الحكومة الأمريكية قامت فى العشرينيات بمحاولة قوية لتحريم الخمر تحريما قاطعا .

وعلينا ألا ننسى فى هذا المقام أن المجتمع الأمريكى فيه من « عوامل التعويض » العلمية والثقافية والاقتصادية مايخفف من تأثير عوامل الهدم اللا أخلاقية . فأثر الأفيون فى دولة فقيرة متخلفة كالصين كان أشد وأعتى من أثره فى الشعب الأمريكى . والزنى والخمر فى شعب أفريقى يؤتيان آثارهما القاصمة أسرع وأقوى وأضرى مما يؤتيانها فى دولة أوربية عندها من الرصيد المالى والاقتصادى والتكنولوجى مايعوض إلى حد كبير عن انهيار جانب من الكيان المعنوى للأمة .

وهل يستطيع أحد أن ينكر أن دولة كأمريكا ستكون أكثر قوة واستقرارا فى كل المجالات لو خلت حياتها من كل هذه المآثم أو أغلبها ؟

و ينضم إلى عوامل التعويض المادية عديد من عوامل التعويض المعنوية مما يخفف من وطأة هذا الشرخ الخطير الذى أصاب جدار القيم بالمآثم التى أشرت اليها .

إن الشعوب الأوربية والأمريكية هى أحرص شعوب العالم على النظام والعمل فى حماسة وإخلاص مع الالتزام بدقة المواعيد والولاء الحى للدولة والقانون والشعور بالمسئولية ..

• • • • • • •

و يتساءل المتسائلون المشككون : وما بال إسرائيل دولة الدعارة والغدر والخيانة تسجل الانتصار تلو الانتصار على أمة العرب .. الأمة المسلمة .. صاحبة الرسالة الخاتمة .. وأمة خاتم الأنبياء وأكرمهم على الله ، وخير أمة أخرجت للناس ؟

ونسى هؤلاء أو تناسوا أن « الخيرية » أو « الأفضلية » ترتبط بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله (١) فهذه الخيرية « لايستحقها من ليس لهم من الإسلام واتباع النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلا الدعوى وجعل الدين جنسية (٢) لهم ، بل لا يستحقها

---

(١) أنظر آل عمران ١١٠

(٢) يقصد بالجنسية هنا مجرد الاسم والانتساب الشكلى للدين .

من أقام الصلاة وآتى الزكاة، وصام رمضان، وحج البيت الحرام والتزم الحلال واجتنب الحرام مع الإخلاص الذى هو روح الإسلام إلا بعد القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالاعتصام بحبل الله مع اتقاء التفرق والخلاف فى الدين(١)

والإيمان بالله لايمثل الجانب العقدى فى توحيده وعدم الشرك به فحسب، بل إنه يمثل القاعدة الأساسية، والمنطلق الحقيقى لاستكمال المسلم « قائمة القيم العليا » .. يقطع بذلك الآيات التى فصلت صورة المؤمن بالله ومنها :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾ (٢)

﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢ ﴾ (٣)

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ ﴾ (٤)

﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ ﴾ (٥)

---

(١) تفسير المنار ٤ / ٥٨

(٢) النساء ١٦٢

(٤) الأنفال ٢، ٣

(٥) المؤمنون ١ ــ ٥

فمعيار « الخيرية » إذن يتجسد فى هذه الثلاثية الكريمة : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله ، وهى تجعل من المسلم كيانا ديناميكيا ناشطا يمارس دوره البناء لا بالنسبة لمجتمعه فحسب .. ولكن بالنسبة للمجتمع الإنسانى كله .

فماذا بقى للمسلمين اليوم من هذه الثلاثية ؟ لم يبق منها إلا الشكل والمظهر .. تغيرت الحال،واختلت المعايير،وأصبح « المسلم الحق » فى ديار المسلمين واحدا من « الغرباء » الذين قال عنهم الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ **« قوم صالحون قليل ، فى ناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم** (١) ..

وقد خرج الطبرانى من حديث لأبى أمامة عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ **« وإن من إدبار هذا الدين أن تجفوَ القبيلةُ بأسرها ، حتى لايُرى فيها إلا الفقيهُ أو الفقيهان فهما مقهوران ذليلان ، إن تكلما فأمرا بالمعروف ، ونَهَيَا عن المنكر قُمعا وقُهرا واضطهدا ، فهما مقهوران ذليلان ، لايجدان على ذلك أعوانا ولا أنصارا » ..**

يقول ابن رجب الحنبلى (٧٠٦ــ ٧٩٥ هـ):فوصف فى هذا الحديث المؤمن العالم بالسنة الفقيه فى الدين بأنه يكون فى آخر الزمان عند فساده مقهورا ذليلا ، لايجد أعوانا ولا أنصارا) (٢) ..

فالمسلم ــ على مستوى العالم الإسلامى كله ــ يعيش اليوم عصر الغربة والضياع واختلال المعايير، فإذا ماقلنا إن « الخيرية » التى تمتعت بها أمة الأمس قد فقدتها أمة اليوم لم نكن مسرفين ولامشتطين فى الحكم .

• • • • •

وتفريعا على الشبهة السابقة تثور شبهة أخرى مؤداها : حتى على صحة الحكم الذى خلصنا إليه تبقى الأمة الإسلامية بصلاتها وصيامها واقامتها الفرائض ــ على الرغم من عصيانها ــ خيرا من دولة الصهيونية التى هى أكثر بعدا عن الله والقيم . فكيف يغلب المفضول الفاضل ؟ وكيف تكتسح دولة الشر أمة تتحلى ولو بالحد الأدنى من الإسلام والقيم الإسلامية ؟

ولا أجد ماهو أبلغ فى نقض هذه الشبهة من كتاب عمربن الخطاب الذى يقول فيه لسعدبن أبى وقاص : « أما بعد فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ،

(١) ابن رجب الحنبلى : كشف الكربة بوصف حال أهل الغربة ٧١
(٢) السابق ٩١

وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا .. لم نغلبهم بقوتنا .

واعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ماتفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا وإن أسأنا فرب قوم سلط عليهم شرمنهم،كما سلط على بنى إسرائيل — لما عملوا بمساخط الله — « كفرةَ المجوس » فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا .. وأسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله ذلك لنا ولكم (١) ..

وكتاب عمر هذا دستور رفيع فى عالم النفس والخلق والسياسة العسكرية :

● ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . نعم ياعمر : وهل ذنوب الجيش إلا الغدر والخيانة والغل والتقاعس عن القتال والفرار من الميدان ؟ . إنها جيش .. بل جيوش من الأعداء الخفية أشد ضراوة من كل عدو وعدة وعدد . إنها « العدو المعايش » الذى لايبعد عن النفس بل هو لصيق بها متغلغل فيها .. إنها عدو خفى مخادع لأن الآثم قد يأتى الذنب تحت اسم لايتفق مع واقعه وحقيقته : فالسرقة والغلول حق أو استحقاق ، والخيانة والغدر قدرة و براعة ودهاء ، والتقاعس عن الجهاد حرص على السلام وصيانة للنفس وحقن للدماء ..

● والمسلمون ينتصرون لأنهم « جماعة المتقين الهداة » يواجهون « جماعة المذنبين العصاة » على الرغم من قوتهم المادية فى العدة والعدد . والتقوى — بمفهومها الشامل — هى الطاقة النفسية والروحية الهائلة التى تنكسر أمامها كل القوى المادية ..

● وفى كتاب عمر تواجهنا قضية منطقية واقعية :

إذا تساوى المسلمون وعدوهم فى المعصية انتصر الأعداء وانهزم المسلمون ، لأن المسلمين بالمعصية يكونون قد فقدوا « رصيدهم الهائل » من التقوى والهدى ، وكانوا كالأعداء فى هذه السمة الهابطة . و يبقى للأعداء بعد هذا « الفقد المشترك » عنصر « التفوق المادى » وهو هذه المرة فى صف الأعداء ، فيكون النصر حليفهم .

منطق لايستعصى على فهم أحد ، وهو منطق واقعى لأن له مايؤيده من واقع التاريخ : لقد سلط الله المجوس عبدة النار على بنى اسرائيل — وهم أهل دين وكتاب — وذلك حينما عصوا الله وعملوا بمساخطه .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ٦ / ١٦٨ . وابن عبدربه الأندلسى : العقد الفريد ١/١٥٣

وليعد القارىء من جديد إلى كتاب عمربن الخطاب .. ليعد إليه وفى ذهنه انكسارات الأمة العربية من سنة ١٩٤٨ إلى اليوم .. إنه سيردد معى فى أسى المثل العربى المشهور « ما أشبه الليلة بالبارحة » ..

●●●●●●

و يقول الشاكون المشككون لقد سجلت الدولة الإسلامية أزهى انتصاراتها فى عهود غلب فيها الفساد الخلقى : الخمر .. والنساء .. والجوارى .. والغلمان .. والشعر الفاحش .. و يتخذون من الدولة العباسية فى عهد هارون الرشيد .. ومن بغداد فى عهده .. بل من شخصية هارون الرشيد و« لياليه » مثلا أو أمثلة يؤ يدون بها دعواهم أو ادعاءهم .

وهذه الشبهة تجرنا إلى إبراز حقائق ثلاث :

الأولى : هى أن التاريخ الإسلامى سقط ضحية مخطط صليبى صهيونى استشراقى مدروس شوه كثيرا من معالمه وخصوصا أزهى فتراته حتى يفجع المسلم فى مثله العليا . وللأسف أسهم بعض كتابنا المحدثين بالغفلة أو الانبهار، وبحسن النية أو بسوئها — فى هذا المخطط الخبيث .

الثانية : أن المؤرخين المسلمين القدامى — على الرغم من دقة التحرى و براعة التحقيق عند الكثير ين منهم — جعلوا تاريخهم يعتمد على نقطتى ارتكاز هما : **الحاكم والعاصمة ..** فهو تاريخ حلفاء وأمراء ووزراء .. وهو تاريخ الأحداث المرتبطة بهؤلاء فى بغداد ودمشق والفسطاط .. ومن ثم كانت سقطة الأمير — اعتمادا على هذه الوجهة — تعنى سقطة نظام بأسره ، وأى مظهر من مظاهر الفساد فى عاصمة كبغداد مثلا يعنى — اعتمادا على هذه الوجهة أيضا — فسادا ضارب الأطناب فى كل جوانب الدولة ..

لم يظفر الريف ولم تظفر البادية من المؤرخين بنظرة .. ولم يظفر العامة بكتاب من كتب هؤلاء المؤرخين إذا استثنينا اهتمامات خاصة لأبى الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى (١) . ومن هنا وقع كثير من مؤرخينا فى عدة أخطاء منهجية وموضوعية من أهمها :

١ — الاستقراء الناقص : فاستخلصوا أحكاما عامة من ظواهر ووقائع فردية .

٢ — الاعتماد على الأسباب الظاهرية دون البحث عما وراءها من بواعث خفية ، فليس من اللازم أن يكون السبب الظاهر هو أقوى الأسباب بل قد يكون أضعفها على الإطلاق .

٣ — التأثر بالتيارات السياسية والطوابع المذهبية مما يبعد المؤرخ عن الحياد وروح الموضوعية .

---

(١) وكذلك ابن خلدون فى مقدمته وهو يستخلص بعض القواعد الاجتماعية فى السياسة والحكم .

وأخطر هذه السقطات جميعها .. هى تعميم الحكم انطلاقا من أحداث قليلة أوظواهر فردية كالحكم على الدولة كلها بالفساد اعتمادا على المشهود فى عاصمة كبغداد مثلا .

أما الحقيقة الثالثة : فهى أن شخصية هارون الرشيد لم تكن فى واقعها الفعلى بهذه الصورة المشوهة التى عرضها المغرضون وذوو الأهواء.وقد رد ابن خلدون فى قوة على الذين اتهموا هارون الرشيد بالسكر والتهتك وتساءل مستنكرا ... وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة ، وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ... وماكان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود صلاة الصبح لأول وقتها ؟

وقد حكى الطبرى وغيره أنه كان يصلى فى اليوم مائة ركعة نافلة،وكان يغزو عاما ويحج عاما ... وقد ثبت عنه أنه عهد بحبس أبى نواس لما بلغه من انهماكه فى المعاقرة حتى تاب وأقلع ، وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق .. وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها .. فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرما من أكبر الكبائر عند أهل الملة (١) .

● ● ● ● ● ●

الدين الحق بقيمه السياسية فى مجال الحكم ، وبقيمه الاجتماعية والإنسانية فى مجال الأسرة والمجتمع والعالم ، وبقيمه التربوية التى تصقل الذات وتحيى الضمير ، وتجعل الإنسان دائما موصولا بالله . هذا الدين الحق بكل هذه الجوانب الثرية فيه .. أصبح هو ضرورة الضرورات ليهيمن على حياتنا من جديد نحن المصريين والعرب والمسلمين ..

إنه القادر الوحيد على التصدى لكل التيارات الغازية سواء العسكرى منها والسياسى والفكرى . وبهذا الدين استطاعت الدولة التركية أن تكسر موجات الغزو الصليبى قرابة أربعة قرون ، وهى أطول مدة فى تاريخ البشرية استطاعت فيها دولة أن تصمد لعالم ضَار منهوم . ولولا غباء الإدارة وسوء السياسة أحيانا من بعض

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١٨ ــ ١٩

ويواجه شفيق جبرى فى كتابه « دراسة الأغانى » (٢٨٨ ــ ٢٨٩) دفاع ابن خلدون عن الرشيد معتمدا على ركيزتين :

الأولى : أن ابن خلدون لم يورد من الأخبار عن الرشيد ماينفى عنه معاقرة الخمر .

والثانية : أن الرشيد مات دون الخمسين مما يوحى بتأثير الخمر والتهتك والعبث على صحته فمات فى هذه السن .

وما ساقه جبرى فى كتابه لايستقيم ردا منطقيا لأن ابن خلدون أورد فى النص السابق وغيره مايقطع بتدين الرشيد واستقامته .

والأعمار بيد الله ، وهى لاتخضع للاعتبارات المنطقية ولا المعادلات الرياضية . فمن التقاة الصالحين من يموت فى سن الشباب أو الكهولة كعمر بن عبدالعزيز الذى مات دون الأربعين . ومن الفاسدين المنحرفين من يعمر كأبى نواس الذى عاش الى مابعد الستين وأبى الفرج الأصفهانى الذى جاوز السبعين .

الحكام الأتراك ، ولولا ذلك « النخر » الذى قام به بعض المخدوعين من حكام العرب وساستهم فى جسم الدولة التركية .. ولولا العملاء الذين صنعتهم الصهيونية العالمية على عينها من أمثال مصطفى كمال أتاتورك .. لولا كل أولئك لاستمر الصمود .. صمود الدولة التركية المسلمة قرونا وقرونا .. بل ربما كان للإسلام شأن آخر على مستوى العالم كله (١) ..

وحينا نقول هو القادر الوحيد فإننا لانغلو ولانشتط فى الحكم ، فوقائع التاريخ الذى تؤيده أكثر من أن تحصى وتعد .. ففى عهود الإنحسار العربى والإسلامى .. وفى العهود التى تمزقت فيها الدولة الإسلامية تحت أقدام التتار والصليبيين . كان الإسلام هو « كلمة السر » و « مفتاح السحر » الذى فتح مغالق الأبواب إلى النصر المؤزر المبين ، وكانت « واإسلاماه » هى القوة الصارمة التى غسلت جبين الأرض الإسلامية فى حطين وعين جالوت .

وكان رجل الدين — فى عهود الانحسار — من أمثال ابن تيمية والعز بن عبد السلام هو النموذج الحىّ للكفاح النابض والفكر المستنير ، وكان هو الإمام والملاذ للجماهير حين يشتد الكرب و يعظم البلاء ..

وكان الإسلام ومازال يتمتع بأصالتين لايتمتع بهما أى نظام علمانى فى العصر الحديث على اختلاف هذه الأنظمة فى مشاربها وركائزها ووجهاتها : إنه يتمتع بالأصالة الزمانية : فقد سبق زمنيا كل هذه الأنظمة التى تتنازع العالم كله .. فى السياسة والحكم والاقتصاد والتربية .

و يتمتع بالأصالة الموضوعية : فقواعده فى شتى المجالات أقوى وأقدر وأثبت جذورا وأكثر نفعا وأقرب بل ألصق بالفطرة الإنسانية من القواعد والقوانين الوضعية (٢) ..

ولم يعد هناك نظام إلا وجربته الأمة العربية على اختلاف أوطانها مروراً بالرأسمالية والتنافس الحر فى مجال السياسة والاقتصاد وانتهاء بالاشتراكية التى لبست عدة أثواب

---

(١) أنظر فى توثيق هذه الفكرة وتفصيلها : جلال كشك فى مجلة « الرسالة » العدد ١١٠١ ودكتور محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ٤ . ودكتور محمد زكى عشماوى . الأدب وقيم الحياة المعاصرة ١٧٤ . ودكتور محمد محمد حسين « الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر » ٣/١ . ومجلة المقتطف عام ١٨٨٩ (ص ٧٢٤ — ٧٢٨) ومقالا لنا بعنوان « الدولة المظلومة والخليفة المفترى عليه » بمجلة الرائد الكويتية ٢٣ من مايو سنة ١٩٧٤ .

وأنظر كذلك كتاب « الرجل الصنم : « مصطفى كمال أتاتورك » بقلم ضابط تركى كبير حيث فضح أسرار أتاتورك والذين تآمروا معه على إسقاط الخلافة الإسلامية فى تركيا .

(٢) أنظر فى صحة هذه المقولة : التشريع الجنائى الإسلامى بجزئيه للمرحوم عبد القادر عودة و « مصادر الحق فى التشريع الإسلامى » للدكتور عبد الرازق السنهورى . واقرأ فى عظمة الحضارة الإسلامية وتفوقها على الحضارة الغربية كتاب المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة « شمس العرب تشرق على الغرب » .

وتلبست بها عدة تلفيقات وطوابع حتى أصبح من الصعب نسبتها إلى أى من الاشتراكيات التى عرفت فى العصر الحديث .

●●●●●

وكم هتفت أصوات وأصوات:« الوطنية قبل الدين »،وكم رقصت هذه الأصوات على بيت شوقى :

الدينُ للديانِ جلَّ جلالُه .:. لَوْشاءَ ربُّكَ وحدَ الأَقوْاما

وتلح هذه الأصوات على بقاء « الدين » معزولا عن « الدولة » تحت قباب المساجد ومآذنها .. حتى يتعايش عنصرا الأمة فى سلام وطمأنينة ووئام . ونسوا أن الإسلام يدعو إلى التجميع لا التفريق ، ونسوا أن أقباط مصر بالذات عاشوا بجلود ممزقة ونفوس مفزوعة تحت سياط الرومان « المسيحيين » وأنهم لم يذوقوا طعم العدل والمساواة إلا فى ظل الحكم الإسلامى .

وفيم يضار المسيحيون إذا حكمت الشريعة الإسلامية فى دولة تسعة أعشار سكانها من المسلمين ؟ . والجميع يعلمون أن المسيحية لم تأت بنظام سياسى حتى يقال : ولماذا لا يكون للنظام السياسى المسيحى نصيب فى شئون السياسة ونظام الحكم ؟. والجميع يعلمون أن من الأصول الأساسية فى المسيحية « دع مالله لله وما لقيصر لقيصر » ..

وليس فى تحكيم الشريعة الإسلامية حجر على الكنيسة المسيحية فى مجال العبادة والتربية والدعوة والأحوال الشخصية وقواعد المعاش . أما مايبقى من قواعد الإسلام فى مجال الحكم والسياسة والاقتصاد ــ وكلها قواعد تحكمها العدالة ــ فليأخذ المسلم نفسه بها دينا .. وليتقبلها المواطن المسيحى قانونا ، وليس فى ذلك مايوقع فى حرج أو يدعو إلى فتنة أو انقسام .

●●●●●

والذين يقولون « القومية لا الدين » غفلوا أو تغافلوا عن حقيقة واضحة وهى أن الإسلام « دين عربى » وان كتابه نزل « بلسان عربى مبين » على « نبى عربى » من « جزيرة العرب » . وأن الإسلام اعتمد ــ على نصرة العرب . فإذا كانت فلسفة القومية العربية ترتكز على الاعتزاز بكل ماهوعربى لغة وقيما وجنسا فلماذا ينفر هؤلاء من الإسلام ؟ . مع أن كل ما يعتزون به ــ اذا مابتعدنا عن الشطط والتعصب ــ كان وما زال من أصوله وجواهره .؟ (١)

---

(١) واضح من قولنا أن الإسلام دين عربى أننا لانقصد أنه « دين محلى » أو « دين مرحلى » كالأديان السابقة عليه ، فالإسلام دين عالمى صالح لكل زمان ومكان ، إنما نقصد « بعربية الإسلام » عربية القرآن ، وعربية النبى ، وعربية الأرض التى ظهر فيها الدين ، وعربية القوم الذين بعث فيهم النبى عليه السلام ، وهذا طبعا لايتعارض مع « عالمية الإسلام » التى هى حقيقة لاتحتاج منا إلى أن ندلل عليها .

والوطنية والقومية بمفهومها الاعتزازى .. الذى يعنى حب الأرض والوطن والحرص على صلات القربى والجوار بعيدا عن التعصب الأعمى والتشدد الضيق . هذا المفهوم — لا أقول : يتفق مع الإسلام فحسب — بل أقول إن الإسلام يدعو إليه ، و يلزم المسلمين به .

لقد هاجر النبى — عليه السلام من مكة إلى المدينة وفى قلبه حسرات لفراق مكة ، وكان يناجى مكة — أحب بلاد الله إليه على حد قوله — و يدعو الله أن يعينه على هول الدنيا و بوائق الدهر ، ومصائب الليالى والأيام ، وأن يصحبه فى سفره ، ويخلفه فى أهله (١) ..

وكم عذب بلال بن رباح بمكة فى وحشية وقساوة ، وعاش فى مكة يواجه الأذى المُرّ والتعذيب الضارى فى صبر وثبات .. إلى أن أذن النبى — عليه السلام — للمسلمين بالهجرة إلى المدينة فكان فى طليعتهم قبل أن يهاجر النبى إليها (٢) .. ومع ذلك كان قلبه معلقا بمكة ، وكم استبد به الشوق إليها . وكم أنشد وحمى المدينة تغشاه :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلةً .:. بِفَخٍّ وحولى إذخروجليلُ
وهل أرِدَنْ يوما مياه مجنّةٍ .:. وهل يبدونْ لى شامَةَ وطفيلُ ؟

وهى مواضع ومنابت بمكة وجوارها تشوقها بلال فى العلة لما ابتعد عنها ، وليس أعجب فى الوفاء لموطن الصبا من هذا الوفاء لأن بلالا قد لقى عند تلك المواطن والمنابت قسوة فى جاهليته ، وتعذيبا فى إسلامه ، وخطرا على حياته ، ولكنه عاش فيها مع الصبا الأول ، وعاش فيها مع الإيمان الأول ، فهى حبيبة إليه . أثيرة لديه ، وإن لقى الحفاوة والسلامة فى الهجرة منها إلى غيرها (٣) ..

فبالهجرة لم يسقط حب مكة من قلب النبى وقلوب المسلمين المهاجرين ، بل كانوا دائما يتطلعون إليها ، و يشتاقون إلى مدارج صباهم وشبابهم فى شعاب مكة وجبالها ، فكان من دعائه — صلى الله عليه وسلم — بعد أن استقر فى مهجره الجديد « **اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد** » (٤) ..

• • • • •

هذه هى وجهة الإسلام ، وتلك هى طوابعه بما تحمله من ثراء وعطاء . ومع ذلك يصر مسلمو اليوم .. أو القائمون على أمور مسلمى اليوم على التشبث بالعلمانية فى الفكر والسياسة والاقتصاد ، ولو تعمقوا حقائق الأمور والتاريخ لأدركوا أن الإسلام « لو كان فى أوربا

(١) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ٣ / ١٧٨
(٢) المقريزى : إمتاع الأسماع ٣٨
(٣) العقاد : بلال داعى السماء ٩٦ — ٩٧
(٤) محمد الغزالى : فقه السيرة ١٣٥

مانشأت العلمانية فى الفكر الأوربى ، ولما وصل تفكير بعض المفكرين فى أوربا إلى التطرف فى المادية والجنوح إلى شحن النفوس بالأحقاد ، ودفعها إلى الانقلاب الدموى لحل بعض المشاكل الاجتماعية (١) ..

فلماذا إذن الحرص على العلمانية فى حياتنا الفكرية والعملية ؟

إن هذا الحرص ـ كما يقول الدكتور البهى ـ إذا جاء من حاكم .. فهو لعدم أهليته للحكم ، وللهرب من المسئولية التى يلقيها الإسلام على الحاكم كحاكم فى طلب الاستقامة فى السلوك ، وأداء أمانة الحكم والعدل والشورى المتبادلة والرعاية وليس التسلط .

وإن كان من مفكر .. فهو قصور فى معرفة الإسلام ، وخداع نفسه وغيره بعرض قضايا يدرك أطرافها فقط دون جوهرها وغايتها .

وإن كان من سياسى . فهو للتلاعب بالفكر غير الناضج والتمويه فى حلبة المناقشة السياسية .

وإن كان من فتى وفتاة . فهو التحلل من التزام الإيمان فى التوجيه والسلوك ، والانطلاق فى شهوة البطن والفرج والملبس (٢)

● ● ● ● ●

فالدعوة إلى العلمانية والحرص عليها فكرا أو تطبيقا لم تصدر من أصحابها عن اقتناع بقدر ماهى نتيجة لمجموعة من « النقائص الذاتية » من أبرزها العجز والهروب والأنانية .

وفى المقابل تبقى الدعوة إلى « إسلامية الأمة » فى السياسة والخلق والاقتصاد والتعليم ، لا دعوة إصلاحية فحسب ، ولكن دعوة بنائية بكل مافى كلمة البناء من معنى : هناك أنقاض لابد أن ترفع .. وهناك أسس وجذور لابد أن ترسخ وتضرب فى الأعماق ، وهناك صروح لابد أن ترتفع وتشمخ بالعقيدة وعزة الإيمان .

نعم .. لايكفى الإصلاح بالترميم والطلاء .. لأن ذلك لون من خداع النفس والكذب على الواقع ، فالترميم ترقيع موقوت ، والطلاء بهرج خداع ، وكلاهما قد يخفى مافى البناء من

---

(١) د. محمد البهى : العلمانية والإسلام ٥٤

(٢) أنظر السابق : نفس الصفحة ..

وَهَن وعيوب ، ولكن تبقى الحقيقة هى .. هى .. وَهَن ضليع يهدد الجميع بالانهيار الذى لايبقى ولايذر :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (١)

• • • • •

وفى ميدان التربية والتعليم مثل صارخ لفلسفة الترميم أو الترقيع الإصلاحى ، ومثله عشرات بل مئات من الأمثلة فى شتى الميادين السياسية والاجتماعية ، وأعنى به الادعاء القائل بأن « التربية الدينية » مادة أساسية فى كل مراحل التعليم . ولنناقش هذا الادعاء ابتداء من التفسير اللغوى ، وانتهاء بالواقع الذى تعيشه هذه المادة التربوية فى مدارسنا .

إن كلمة « أساسية » منسوبة للأساس ، وهذا يعنى بالمفهوم اللغوى أنها تدخل فى « أصل البناء التعليمى » بكل المراحل التعليمية ، وأنها تمثل جزءا أصيلا فى كيانه مثل الطبيعة والكيمياء والرياضيات واللغة العربية ، أى المواد التى يجب أن يحصل الطالب فيها على نسبة خمسين فى المائة من الدرجة الكلية أو مايقارب هذه النسبة حتى يعتبر ناجحا . كما أن درجة كل مادة من هذه المواد الأساسية تمثل جزءا من المجموع الكلى لدرجات الطالب .

وهذا يعنى ــ بمفهوم المخالفة ــ أن مادة التربية الدينية ليست من المواد الفرعية أو الإضافية كالتربية الرياضية ومواد المستوى الخاص .

فإذا سألنا عن « الموقع الحقيقى » لمادة التربية الدينية بين هذين النوعين من المواد الدراسية ، وصلنا إلى نتيجة غريبة تدعو للأسف ، وهى أنها مادة ليس لها من القيمة الفعلية ــ على أساسيتها المدعاة ــ ما للمواد الإضافية : فهى مادة رسوب ونجاح ــ هكذا يقولون ــ والطالب لايعد ناجحا فى هذه المادة إلا اذا حصل على أربعين فى المائة على الأقل من الدرجة الكلية ، ولكن درجاتها لا تضاف إلى مجموع درجات الطالب لا فى سنوات النقل ، ولا فى الشهادات العامة !!

---

(١) التوبة ١٠٩

وهى لا تعامل معاملة مادة « التربية الفنية » التى تضاف إلى مجموع الطالب ، بل إ لا تعامل معاملة مواد « المستوى الخاص » وهى مواد « تحسين المجموع » .. يختار طالب الثانوية العامة واحدة من هذه المواد .. إذا أراد — وتضاف درجاتها إلى مجموعه الكلى اذا حصل فيها على خمسين فى المائة على ألاقل ..

ثم إن نصيب « التربية الدينية » فى خطة الدراسة — بالمرحلة الثانوية — حصتان فى الأسبوع ، وهما غير كافيتين إذا نظرنا إلى هذه المادة نظرة منصفة من جانبيها : التربوى السلوكى والعلمى المعرفى .

هذا إلى مايحدث أحيانا فى أواخر العام الدراسى من تخفيض الخطة فى بعض المدارس مع الجدول الصيفى لتصبح الحصتان حصة واحدة .

وأخيرا لا تفوتنى الإشارة هنا إلى التساهل المفرط فى تقدير درجات « التربية الدينية » فى الشهادات العامة بصفة خاصة ، فقد أصبح من البديهيات المسلّم بها أن الطالب من حقه « أن ينجح » فى هذه المادة مادام فى ورقة إجابته سطور محبّرة . بصرف النظر عن طبيعة المكتوب الذى لا يعدو غالبا عبارات إنشائية لايكاد يربطها بالدين أوْ هْى رباط .

وترتب على كل أولئك استهانة صارخة من الطلاب بمادة التربية الدينية : فهم لايحفظون الآيات القرآنية المقررة ، بل إن الغالبية العظمى من الطلاب لايفتحون كتاب التربية الدينية إلا ليلة الإمتحان .. يلقون على صفحاته نظرات خاطفة .. و ينامون ملء جفونهم لأنهم يدركون أن « النجاح فى الدين » مضمون ..

ولا أعدو الحقيقة إذا قلت إن كثيرين من الذين يقومون بتدريس التربية الدينية لايقلون استهانة بهذه المادة المطلوبة عن طلابهم .

— فليس فى مدارسنا المدرس المؤهل ليتفرغ تفرغا كاملا لتدريس مادة التربية الدينية بفروعها المختلفة .

— وليس وراء تدريس هذه المادة حافز مادى من دروس خصوصية أو مجموعات دراسية توفر للمدرس دخلا إضافيا مما يدفع المدرسين إلى التهرب منها .

— وطبيعة المنهج والتخطيط المتميع غير الجاد تدفع مدرسى اللغة العربية إلى الجور على حصتى التربية الدينية أو حصتها لتدريس فرع من فروع العربية إذا ما ضاق وقتها عن استيعاب « الكم » المطلوب منها . بل إن مدرسى المواد الأخرى .. التجريبى منها والإنسانى يقومون — فى أيام الضيق — بمثل هذا « الجور » ولكن بطريقة « التفاهم الودى » مع السيد مدرّس اللغة العربية .

نـتيجة مؤسفة ، وتناقض غر يب ، وخداع للنفس والحقيقة ، ومع ذلك يصر المسئولون على أن التر بية الدينية مادة أساسية فى كل مراحل التعليم ..

• • • • •

وهناك لون آخر من التناقض أشد وأعتى : الطالب يتلقى فى كل سنوات الدراسة أجزاء مـن الـقـرآن والسـنة والعبادات والقيم الخلقية وسير المثل العليا من الشخصيات الإسلامية ، وحينما يغـادر المدرسـة إلى الشـارع يـرى بعينيه و يسمع بأذنيه كل ماينـاقض ماتلقى : ففى الـكـتـاب المـدرسـى : الـتـحـشـم فى المظهر والملبس واجب .. ولكنه يرى فى الشارع .. وفى السينما .. وعلى شاشة التلفاز ماينـدى له الجبين .

الخمر حرام .. ولكنه يرى الدولة تبيح الخمر بيعا وشراء وشر با ..

الر با حرام .. ولكنه يرى نظام البنوك يعتمد اعتمادا أساسيا على الفائدة الر بو ية .

عـوامـل الهـدم أقـوى بـكـثير .. وأكثر بـكـثير مـن عـوامل البناء ، والنتيجة الطبيعية لهذا الـتـنـاقـض الـصارخ بين المعرفة والواقع .. بين المدروس والمعروض .. أن يخرج الشباب إلى مـعـتـرك الحـيـاة وفى أعماقه جذور من الحيرة والشك والصراع الضارى بين الاستسلام لما هو كـائـن ـ وهنا تكون السلبية والخنوع والضياع ـ و بين إنكاره والتمرد عليه ، فيصطدم بعقبات ومـعـوقـات يقف القانون فى صف أغلبها .. وهنا ينشأ صراع من نوع جديد قد تتحول حماسة الشباب فيه إلى عنف وتطرف .

• • • • •

والحـل ؟!! .. تـقـول الـتـجارب المرة التى مرت بها الأمة الإسلامية فى القرن العشر ين بـصـفـة خـاصـة .. لا حلّ إلا فى « العودة » . العودة إلى المنبع الصافى النبيل .. منبع الدين الـذى أكـرم الله بـه هـذه الأمـة فجعلها خير أمة أخرجت للناس .. ما أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر وآمنت بالله ..

نـعـم عـودة إلى هـذا المـنـبـع الكريم بعزمة المؤمنين وصدق المتقين . والطر يق إليه واضح لايحـتـاج إلى لـوائـح و بـرامج بقدر مايحتاج إلى النوايا الصادقة والتنفيذ الأمين ، فالبرنامج ــ كما يـقـول كـار يـل ــ قـد يخـنـق الـتـجـر بـة الحية خلف درع صلبة ، إنه سيمنع انبثاق غير المتنبأبه ، ويحبس المستقبل داخل حدود عقلنا (١) ..

---

(١) الكسيس كار يل : الإنسان ذلك المجهول ٣٥٩

والعودة إلى هذا المنبع الكريم لن تكلفنا مشاق ، ولن تجشمنا آلاما ومعاناة ، لأنها أخذ بيد الإنسان إلى مايتفق مع «فطرته الإنسانية» بعد أن فقد سعادته .. بل آدميته حين وقع فريسة للأيديولوجيات الوضعية ، وأدار ظهره لميراثه الكريم النبيل .

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ (١)

(١) الرعد ١٧

خلاصة البحث

(١) كان المجتمع الجاهلي غاصا بالمفاسد : عبادة الأوثان . شرب الخمر . الظلم والقهر.الاحتكام إلى السيف فى حل القضايا حتى كانت الحروب تستمر عشرات السنين لأتفه الأسباب .

و بعض هذه الأمراض الاجتماعية والخلقية كان عاما كالذى ذكرنا ، و بعضها كان خاصا ببعض قبائل العرب الضعيفة مثل وأد البنات . على أنه من الحقائق التى يجب أن نعيها بالنسبة للمجتمع الجاهلى فى الجزيرة العربية :

أ ــ أنه لم يكن أسوأ المجتمعات فقد كانت المجتمعات التى تحيط به و بخاصة مجتمعا الفرس والروم أشد سقوطا وتكالبا على المفاسد والرذائل . وهذا يقتضينا أن نفسر المجتمع الجاهلى تفسيره الصحيح ليشمل كل المجتمعات السابقة والمزامنة لبعثة الرسول وهذا يتفق مع طبيعة الرسالة المحمدية .. خاتمة الرسالات التى جاءت للناس عامة عربيهم وعجميهم فى كل الأوطان وكل الأزمان .

ب ــ أنه لم يخل من الفضائل الإنسانية من شجاعة وكرم ونجدة وإغاثة الملهوف . يدل على ذلك :

- حلف الفضول الذى حضره محمد شابا وأثنى عليه نبيا وهو حلف عقد فى الجاهلية لنجدة المظلوم .
- نقض بعض الجاهليين ــ وهم كفار ــ لصحيفة مقاطعة قريش للنبى وآله من بنى هاشم وإمدادهم بالطعام والكساء فى ظلمة الليل سرا .
- استنكار هند بنت عتبة أن يكون هناك الحرة الزانية .. فالزانيات كن جماعة من الإماء المحترفات لايزيد عددهن عن ست أو سبع .
- إنقاذ بعض كرام الجاهليين للوليدات اللائى يحاول آباؤهن وأدهن بشرائهن من مالهم الخاص حرصا على حياتهن .

وكانت هذه الفضائل هى البقية الباقية من بصمات الأديان فى النفس العربية : الإبراهمية واليهودية والمسيحية .. واستجابة لصوت الفطرة التى يولد عليها كل مولود .

(٢) وجاء الإسلام فكان له ثلاثة مواقف من القيم الجاهلية شرها وخيرها :

الموقف الأول هو التحريم :

فقد حرم ماغصّ به المجتمع الجاهلى من شرور وموبقات : حرم الشرك بالله أول ماحرم ودعا إلى عبادة الواحد الديان . الفرد الصمد . وحرم وأد البنات وحرم الظلم والعدوان وحرم الخمر والميسر والأزلام .

الموقف الثانى هو الإقرار:

فقد أقر البقية الباقية فى المجتمع الجاهلى من فضائل كالكرم والشجاعة والنجدة حتى أن النبى صلى الله عليه وسلم أثنى على حلف جاهلى هو حلف الفضول وقال إنه لو دعى به فى الإسلام لأجابه .

الموقف الثالث التسامى أو الإعلاء :

و يتلخص فى الإبقاء على « المنبع القيمى » مع تحويل مساره من « الانحراف الخلقى » إلى الوجهة السوية الصحيحة . فاستغل الطاقة الشعرية فى الدفاع عن الدين والإشادة بمكارم الأخلاق . وحول غريزة الغضب وحب القتال والعدوان إلى تعشق الجهاد حرصا على نشر الدين وإعلاء كلمة الله . ومن أشهر الشعراء الذين سما الإسلام بطاقتهم الشعرية عبدالله بن الزبعرى الذى كان فى الجاهلية من أفحش الناس وأهجاهم ، فلما أسلم صار شاعر حق وصدق ودين

(٣) والقيم الإسلامية نوعان :

أ ــ القيم السلبية أو قيم التخلى . وتظهر فى ترك الموبقات والشرور كالخمر والغدر والظلم وأكل السحت .

ب ــ القيم الإيجابية أو قيم التحلى : مثل الصدق والرحمة والأمانة والكرم .. الخ .

وهذه القيم فى مجموعها تتسم بسمات ثلاث :

السمة الأولى : التدرج التكليفى :

بمعنى أن هذه القيم بصورتها لم يأت التكليف بها طفرة واحدة وإلا ملّ الناس وعجزوا عن أخذ أنفسهم بها ولكنها جاءت بالتدريج تبعا للأحداث والاحتياجات ومقتضيات الأحوال .

والتدرج سمة كونية فى الخلق والحياة بالنسبة للإنسان والحيوان والنبات ...

وأهم ماحققه الإنسان بهذا التدرج فائدتان :

(أ) ضمان تنفيذ العمل والاستجابة للشرع أمرا ونهيا .

(ب) ترسيخ التكاليف والقيم فى نفوس المؤمنين .

وقد ظهر هذا التدرج التشريعى فى كل التكاليف الإسلامية على وجه التقريب كالصلاة والصيام . ولكن أشهر مثال لهذا التدرج هو تحريم الخمر التى لم تحرم التحريم القاطع إلا بعد تمهيد نفسى قرابة عشر سنوات.فلما حسم القرآن المسألة بآية المائدة « **إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان .. الخ** » كانت الإجابة العملية للمسلمين « انتهينا انتهينا » .

وقيمة التدرج تظهر إذا ماعرفنا أن أمريكا أخفقت إخفاقا ذريعا فى تحريم الخمر حين فرضت فجأة فى مطلع العقد الثالث من هذا القرن قانون تحريم الخمر،وأنفقت عليه مئات الملايين من الجنيهات واستخدمت القوة والسطوة دون جدوى فعادت إلى اباحة الخمر مرة ثانية .

السمة الثانية : الوسطية العادلة :

فبعد إغراق اليهودية فى المادية العاتية .. وبعد إغراق المسيحية فى الروحانية والرهبانية .. جاء الإسلام على فترة من الأديان وجاء محمد على فترة من الرسل .. ليصنع « الأمة **الوسط** ».**وكانت الأخلاق الإسلامية** بعيدة عن حدّى الغلو: الإيغال فى المادية والإيغال فى الروحانية ، وكان المنطق والمنطلق الأخلاقى الإسلامى هو قوله تعالى « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** » ..

ولكن الإسلام لم يقف من الأخلاق اليهودية والأخلاق المسيحية موقف العداء فقد أقرت الشريعة الإسلامية أحكاما كانت موجودة فى الشرائع السابقة مثل الصوم والأضحية ورجم الزانى وتحريم الخمر. ومن سماحة الإسلام أنه يمجد «القيمة الأخلاقية» فى ذاتها ، **ألم يمجد** حلف الفضول : حلف العدل والنجدة والأريحية قبل الإسلام وبعد الإسلام ، وهو الحلف الذى عقده جاهليون كانوا على دين الشرك وعبادة الأصنام؟

وشرع من قبلنا يعد مصدرا من مصادر التشريع فى الإسلام فيما سكت عنه ديننا ولم يتعارض مع قواعده . ولكن « **المفهوم** القيمى الإسلامى »-كمفهوم خالد غير مرحلى- ابتعد كما قلت عن الإيغال فى مادية اليهودية والإيغال فى رهبانية المسيحية ، والتزم الحد الوسط فى الفضائل . فكانت المثالية الإسلامية بهذه الوسطية « مثالية واقعية » وإن شئت فقل « مثالية أرضية » قادرة على « المعايشة » والبقاء والخلود .

والمسلم بهذه « الوسطية الأخلاقية » إنما يحقق « التوازن الهرمونى » بين العناصر الثلاثة

للنسيج البشرى وهى : العقل ، الجسد ، الروح .. وهذا التوازن يعنى فى حقيقته القيام بعملية « توفيق » بين مطالب العقل من علم ومعرفة ، ومطالب الروح من عبادة وصفاء وإيمان، ومطالب الجسد من طعام وشراب وجنس مشروع .

والجور على حق العقل فى الإشباع يؤدى إلى الجهالة الحيوانية .

والجور على حق الروح فى الإرواء يؤدى إلى الجمود والتحجر النفسى .

والجور على حق الجسد يؤدى إلى الاصطدام بالفطرة الإنسانية .

وعملية « التوفيق » بين مطالب العناصر الثلاثة تحقيقا للوسطية العادلة ، تختلف فى جوهرها عن عملية « التلفيق »؛فالتلفيق يعتمد على الافتعال والتعسف والتعنت والمظهرية دون مراعاة لمقتضيات التناسب الإشباعى لهذه العناصر الثلاثة .

السمة الثالثة للقيم الإسلامية هى الهيمنة التشريعية :

وأعنى بهذه السمة أن الطابع الأخلاقى والدافع الإنسانى وراء كل قاعدة من قواعد الشريعة الإسلامية ، سواء أكانت قاعدة كلية أو قاعدة جزئية . من هنا جعل الإسلام المقام الأول « للنية » فى تكييف الأعمال والأقوال وتقييمها .

وقد قرر النبى عليه السلام هذه القاعدة فى حديثه المشهور:

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى »

وتظهر « الهيمنة التشريعية » للطوابع الأخلاقية الإسلامية بصفة خاصة فى جانبين :

أ- العبادات الإسلامية :

من صلاة وصيام وزكاة وحج ، فكل هذه العبادات لها جانبان الجانب الشكلى المظهرى ، وهو جانب الأداء بالألفاظ والشكل والصورة التى نص عليها الشارع . والجانب الموضوعى الغائى وهو أن تحقق هذه العبادات ماشرعت من أجله وهو تربية الضمير وتنقية الوجدان وحسن معاملة الآخرين . لذلك أمر القرآن بإقامة الصلاة لا « أدائها » والإقامة أكمل وأرقى من الأداء ، وهذا يتفق مع الهادفية الأخلاقية للصلاة التى لخصها الله سبحانه وتعالى فى قوله « **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**» ..

والصوم تربية للنفس على الصبر والانتصار على عبودية « العادة » واستشعار آلام الآخرين بالجوع والعطش ، والإحسان إلى الناس بالمعاملة الطيبة ، فلا جهالة ولا رفث حين يكون المنطق الحاكم هو « اللهم إنى صائم » ..

والزكاة إنما شرعت تطهيراً للنفس وتزكية للمال « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها . فإذا أصبحت الصدقة مَنٌّ أو أذى فقد حبط العمل و بطل الثواب .

ب ــ القواعد القانونية :

حيث تحرص الشريعة على أن تبنى هذه القواعد على أسس أخلاقية ، وأن تراعى الجانب الإنسانى عند الاقتضاء وتنعكس هذه المراعاة فى نظريتين مشهورتين : **الأولى : هى (نظرية التعسف** فى استعمال الحق) فتملك الحق لا يكون مطلقا بل هو مقيد باحترام حقوق الآخرين وعدم الإضرار بهم ، وإلا كان هذا تعنتا وتعسفا يتعارض مع أمر الرسول عليه السلام ، بأنه « لا ضرر ولا ضرار » . .

وقد وضع الفقهاء المسلمون للحق قواعد وضوابط مازالت حتى الآن تمثل أرقى ماعرفته البشرية فى هذا المجال .

أما النظرية الثانية التى تدل على أخلاقية القواعد القانونية الإسلامية فهى (نظرية الضرورة) ولها تطبيقات كثيرة جدا نص عليها الفقهاء ، وكلها تطبيقات تراعى الجانب الإنسانى :

منها مثلا : أن الضرورات تبيح المحظورات.فحرصا على حياة من لا يجد إلا الخمر لدفع الظمأ القاتل يبيح له الإسلام شرب الخمر ولكن بقدر مايدفع عن نفسه الهلاك . .

والمدين الذين هلك ماله بفعل قهرى لا دخل له فيه يمهل إلى ميسرة أو يخفف عنه **الالتزام بسبب الضرورة الحالة التى أضرت بالمدين وأهلكت ماله .**

وقد كان لهذه النظرية الإسلامية تأثيرها البالغ فى القانون الوضعى فيما يتعلق بنظرية القوة القاهرة أو الحوادث الطارئة . .

• • • • •

(٤) وتقرير القيم لا يغنى عن وجود المثل الحى الذى تتجسد فيه هذه القيم ، و يتمثل به الناس أقوالا وأفعالا . . وقد كان محمد هو هذا المثل الأعلى الذى تمثلت فيه قيم الحب والسماحة والرحمة والوفاء والصبر والزهد فيما يتهالك عليه الناس و يتكالبون و يتقاتلون .

لقد تحلى ــ عليه السلام ــ بكل المناقب الجديرة بخاتم الأنبياء ، وكل منقبة من هذه المناقب كانت فى أرقى صورة وأشمل مفهوم : فرحمته ــ على سبيل المثال-اتسعت لأحبابه **وأصحابه واتسعت لأعدائه فدعا لهم بالهداية ، واتسعت للطفل الصغير وللشيخ الكبير واتسعت للحيوان الأعجم .**

وما يقال عن الرحمة يقال عن الوفاء والعفو والحلم والصبر والعزة والتواضع إلى آخر قيم الإنسان الكامل .

وإذا كانت بلاغة الأقوال فى مراعاة مقتضى الحال .. فبلاغة الأعمال فى استخدام الصفة الخلقية فى الموقف الذى تتناسب معه : فمن الخطل وضع الندى فى موضع السيف،ومن الخطل كذلك وضع السيف فى موضع الندى . وقد كان عليه السلام يحلم و يعفو حينما يكون الحلم والعفو بميزان العقل والشعور « ضرورة إنسانية » لا بديل لها .

وكان عليه السلام يشتد ــ فى غير ظلم ــ إذا كانت الشدة انتصاراً لحق ودين : فعفا عن الأعرابى الجافى الذى أساء إليه وجذبه من ثوبه الخشن جذبة أثرت فى عنقه ، ولكنه لم يلن لمسيلمة الكذاب حينما جاء إلى المدينة « يساوم » على مركز « الخلافة » بعد الرسول .. إنها عبقرية المعاملة والأفعال التى كانت المظهر التجسيدى لعبقرية الخصائص والصفات .

● ● ● ● ●

(٥) ولم يكن محمد « ملاكا » هبط من السماء .. إنما كان بشرا مثلهم يوحى إليه . وكان هذا الإعلان القرآنى يدل دلالة قاطعة على أن المثالية المحمدية هى « مثالية الإمكان » وليست « مثالية الإعجاز» هى « مثالية الواقع » وليست « مثالية الخيال اليوتوبى » .

وكان هو القدوة الصالحة التى تدل على هذا الإمكان :«صلوا كما رأيتمونى أصلى ». كان دائما يتقدم أصحابه فى السلم والحرب بالقول الصادق والعمل المخلص الشجاع ليتمثلوا به و يقتدوا ، فلهم فيه الأسوة الحسنة دائما ..

وكانت هذه القدوة هى الملمح الأول فى منهج محمد فى التربية الأخلاقية ..
و ببراعة النبى الملهم لم يكن يترك حدثا ــ خاصا أو عاما ــ إلا واعتصر منه دلالته ، واستخلص منه عبرته ، وعلم المسلمين الدروس التى تتعلق به وترتبط .

وهو فى دروسه يستعين كثيرا بما يحبب و يشوق : يستعين بالتشبيهات والتصوير والحكم والأمثال .

وهو فى تعاليمه لا يفضح المخطئين بل يجعل التوجيهات غير مباشرة تدل على موضع « العيب » ولا يهم موضع المعيب .. المهم « الناتج الأخلاقى » لا «التشهير الفاضح » فهو لم يبعث لعانا ولا شتاما ..

ثم كانت قاعدة أو قاعدتا « السؤال والجواب »

يسأله المسلمون وعليه أن يجيب و يرشد و يوجه ..
وهو بدوره يسأل المسلمين سؤال العارف والعالم الذى يسأل تلاميذه ومريديه تنشيطا لهم وتفتيحا لأذهانهم واختبارا لقدر مايعلمون ، ثم تكون له الكلمة الحاسمة بعد ذلك لأنه كان ــ على أميته ــ أعلم العلماء ..

وكانت هذه الملامح ابتداء من القدوة العملية الصالحة وانتهاء بقاعدة « السؤال والجواب » هى أهم عناصر « المنهج المحمدى » فى غرس القيم الأخلاقية فى نفوس المسلمين .

● ● ● ● ●

(٦) والعلمانية التى تسود الوطن العربى والإسلامى تعزل الدين عن الدولة ، بل تعزل القيم الخلقية عن الدين ، مع أن الدين هو أعمق منابع هذه القيم وأثراها ، كما أن قيم الدين ثابتة أصيلة وإن اتسعت للمرونة والسماحة والتجدد ..

والأخلاق الدينية لاتجافى الفطرة الإنسانية ، بل تسايرها وتتفق معها ، كما أنها أخلاق لها مايؤيدها من السنة النبوية العملية ومن عمل السلف الصالح رضوان الله عليهم ..

والتحلى بالأخلاق الدينية ، واستلهام روح الدين فى القول والعمل يعد استجابة لأمر الله ، ومن ثم يضمن لنا رضوانه ونصره ..

● ● ● ● ●

ولكن العلمانين يواجهون الحقائق السابقة بشبهات تهدف فى مجموعها إلى التهوين من قيمة الدين كطاقة بناءة تولد النصر والاستقرار وسعادة المجتمع . ومن هذه الشبهات :

● انتصار الشيوعيين الملاحدة فى فيتنام على الأمريكان وهم أهل دين سماوى وكتاب .

ونحن نقول : إنهم انتصروا بحماسة المظلوم المغصوب ضد الظالم الغاصب لا بحماسة الإلحاد فى مواجهة الإيمان ..

وإذا صح مايدعون فالحجة مردودة عليهم لأن حماسة الإيمان أقوى بكثير من كل حماسات الإلحاد وطاقاته ..

● أمريكا هى أقوى دولة فى العالم مع أنها تموج بالمفاسد الخلقية من خمر ومخدرات وإباحية جنسية .. ونحن نقول :

(أ) لا يستطيع أحد أن يزعم أن هذه المفاسد هى « سر القوة الأمريكية » .

(ب) وهناك فى أمريكا أصوات قوية تنادى بالقضاء على هذه المفاسد .

(جـ) وفى أمريكا من عوامل التعويض المادى والمعنوى مايخفف من أثر هذه المفاسد ..

(د) ولو تصورنا أمريكا وقد تخلصت من هذه المآثم فلا شك أنها ستكون أقوى بكثير مما هى عليه الآن .

• اسرائيل — دولة اللا أخلاق — سجلت أقوى الانتصارات على أمة العروبة والإسلام والأخلاق ..
ونحن نقول :

(أ) الخيرية أو الأفضلية إنما تكون بالعمل والالتزام الديني ، وهذا ما فرطت فيه الأمة العربية .

(ب) الله قد يسلط على عباده العصاة — بعصيانهم — من هم شر منهم ،كما سلط المجوس عبدة النار على اليهود — وهم أهل كتاب — لما عملوا بمساخط الله .

• الدولة الإسلامية نفسها سجلت أزهى انتصاراتها وتقدمها العلمي والاقتصادي في العصر العباسي مع وجود الخمر والمفاسد .. ومع تهتك الخلفاء كهارون الرشيد ..
ونحن نقول :

(أ) ان حقائق التاريخ الإسلامي قد نالها من التشويه الشيء الكثير على أيدي أعداء الإ سلام ، وللأسف على أيدي كثير من مؤرخي العرب أنفسهم قديما وحديثا .

(ب) والثابت أن هارون الرشيد بالذات كان مثالا للتقوى والصلاح والهيبة والقوة والعدل .

• • • • •

وليس أمام الأمة الإسلامية — حتى تستعيد مكانتها العظمى — إلا العودة إلى الدين في كل مجالاتها السياسية والاقتصادية والتربوية ، فرصيده من الواقع التاريخي يقرر أن العرب لم ينتصروا إلا به حتى في أشد العهود ضعفا وظلاما ..
ورصيده من المبادىء والقواعد الأصيلة السباقة فيها الغناء الكامل عن كل أيديولوجية أو قانون وضعي .

والإسلام لا يجافي الوطنية ، ولا يتعارض مع القومية ، بل إن روحه تتسع لهما ما كان طابعها الاعتزاز والحب والتضحية والإنسانية والبعد عن التعصب . والذين يخشون من الإسلام والشريعة الإسلامية على وحدة الصف بعنصرية (الإسلامي والمسيحي) نقول لهم : تذكروا أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا يعترف بالمسلم مسلما إذا كفر بالمسيحية أو اليهودية وأنكر عيسى أو موسى أو أنبياء الله وكتبه . وتذكروا أن نصارى مصر لم يذوقوا في حياتهم عدلا كالذي عاشوه في ظل الحكم الإسلامي ..

• • • • •

وتبقى العلمانية بعد ذلك فلسفة هلامية هروبية تدل على العجز والقصور والسطحية والأنانية . و يأتى إخفاق الفلسفات والأيديولوجيات الوضعية صرخة قوية فى وجوهنا : عليكم بإسلامية الكيان .. لا بالترميم والتحايل والتظاهر والطلاء .. بل بالبناء الثابت الراسخ .. إن كنتم جادين حقا فى أن تكونوا ــ من جديد ــ خير أمة أخرجت للناس ..

المــــراجــــع

(١) القرآن الكريم ..

(٢) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر : د . محمد محمد حسين . المطبعة النموذجية . القاهرة . الطبعة الثانية .

(٣) إحياء علوم الدين : حجة الإسلام أبوحامد الغزالى ـ دارالشعب ـ القاهرة .

(٤) الأدب وقيم الحياة المعاصرة : د . محمد زكى عشماوى . القومية للطباعة والنشر . القاهرة (د . ت) ..

(٥) الأخبار الموفقيات : الزبيربن بكار: تحقيق الدكتور سامى مكى الغانى ـ بغداد .

(٦) أسباب النزول : جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر السيوطى / القاهرة ١٩٦٣ ..

(٧) أسد الغابة فى معرفة الصحابة : عزالدين بن الأثير (دارالشعب / القاهرة) ..

(٨) أسرار العبادات فى الإسلام : د. عبدالحليم محمود : المصرية للتأليف والترجمة والنشر (القاهرة ١٩٦٦) ..

(٩) أصول التشريع الإسلامى : على حسب الله (الطبعة الأولى ١٩٥٢ ـ مكتبة الجامعة ـ القاهرة) ..

(١٠) أصول الفقه : محمد زكريا البرديسى (الطبعة الثانية) ١٩٦١ ـ مطبعة دارالتأليف / القاهرة .

(١١) الأغانى : أبوالفرج الأصفهانى طبعة دارالشعب .

(١٢) إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع : المقريزى : تقى الدين أحمد بن على . تحقيق وتعليق : محمود شاكر ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ .

(١٣) الإنسان ذلك المجهول : الكسيس كاريل . تعريب : شفيق أسعد فريد . مكتبة المعارف . بيروت . ط٣ . ١٩٨٠ .

(١٤)الإنسان فى القرآن الكريم : عباس العقاد . دارالهلال ١٩٦١.

(١٥)البداية والنهاية : الحافظ اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى . دارالفكر العربى القاهرة . (ط ١) ١٩٤٢.

(١٦)بلال داعى السماء : عباس محمود العقاد . مكتبة غريب . القاهرة (دت).

(١٧)تحت شمس الفكر : توفيق الحكيم . مكتبة الآداب . القاهرة ١٩٨٢.

(١٨)التشريع الجنائى الإسلامى (القسم العام) عبدالقادر عودة (ط ١) ١٩٤٩ — دارالنشر / القاهرة .

(١٩)التشريع الجنائى الإسلامى (القسم الخاص) عبدالقادر عودة (ط ٢) ١٩٦٤ — دارالعروبة / القاهرة .

(٢٠)التشريع والفقه فى الإسلام تاريخا ومنهجا : مناع القطان (ط ١) ١٩٧٦ وهبة / القاهرة . .

(٢١)تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) الإمام محمد عبده (ط ٣) ١٩٦٧ دارالمنار.

(٢٢)التفكير فريضة إسلامية : عباس العقاد . دارالهلال . القاهرة (دت).

(٢٣)تنزيل القرآن على الشواهد من الأبيات شرح شواهد الكشاف (ملحق بالجزء الرابع من الكشاف) محب الدين أفندى . .

(٢٤)الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبى) أبوعبدالله محمدبن أحمد الأنصارى القرطبى — دارالشعب — القاهرة .

(٢٥)حجة الإسلام البالغة : شاه ولى الدين بن عبدالرحيم الدهلوى / دارالتراث ١٩٧٧.

(٢٦)حقوق الإنسان فى الإسلام : د. على عبدالواحد وافى . دارنهضة مصر . القاهرة (ط ٥) ١٩٧٩.

(٢٧)الحياة العربية من الشعر الجاهلى : دكتور أحمد الحوفى . مكتبة نهضة مصر . القاهرة (ط ٢) ١٩٥٢.

(٢٨)الخراج : أبويوسف : يعقوب بن ابراهيم بن حبيب البجلى . دار الإعتصام . القاهرة ١٩٨١

(٢٩)دراسة الأغانى : شفيق صبرى . دمشق ١٩٥١.

(٣٠)دستور الأخلاق فى القرآن : د. محمد عبدالله دراز. (ط ١) ١٩٧٣ — بيروت .

(٣١)دلائل الإعجاز فى علم المعانى : عبدالقاهر الجرجانى . دارالمنار. مصر (ط ٥)٠

(٣٢)الدولة العثمانية والشرق العربى : د. محمد أنيس . القاهرة . الأنجلو (د.ت)٠

(٣٣)ديوان الحطيئة : جرول بن أوس . تحقيق عيسى سابا (دارصادر. بيروت)٠

(٣٤)زاد المعاد فى هدى خير العباد : أبوعبدالله بن القيم الجوزى (صبيح بالأزهر-القاهرة) .

(٣٥)السيرةالنبوية لابن هشام : أبومحمد عبدالملك بن هشام المعافرى تحقيق محمد فهمى السرجانى/المكتبة التوفيقية ١٩٧٨ ــ القاهرة ..

(٣٦)سيرة عمر بن الخطاب : على الطنطاوى وناجى الطنطاوى : المكتبة العربية / دمشق .

(٣٧)السياسة الشرعية : ابن تيمية : طبعة دار الشعب / القاهرة .

(٣٨)شرح القصائد العشر : الخطيب أبوزكريا يحيى بن على التبريزى (إدارة المطبعة المنيرية ــ القاهرة ١٣٦٩ هـ) .

(٣٩)الشعر والشعراء : ابن قتيبة ــ (ط ٣) ١٩٨٨. تحقيق الشيخ أحمد شاكر .

(٤٠)الشفا بتعريف حقوق المصطفى : القاضى عياض بن موسى اليحصبى الأندلسى . تحقيق محمد أمين قرة على وآخرين (مؤسسة علوم القرآن ــ دمشق) .

(٤١)صحيح البخارى : أبوعبدالله محمدبن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزيه البخارى الحنفى / دار الشعب / القاهرة .

(٤٢)صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى أبوالحسين حافظ.بشرح النووى الشافعى.تحقيق عبدالله أحمد أبوزينة (دارالشعب / القاهرة) .

(٤٣)طبقات فحول الشعراء : محمدبن سلام الجمحى . تحقيق محمود شاكر (مطبعة المدنى القاهرة) .

(٤٣)عثمان بن عفان : د. محمد حسين هيكل . دارالمعارف ١٩٧٣٠

(٤٥)العدالة الإجتماعية فى الإسلام : سيد قطب (ط ٢) دارمصر للطباعة ــ القاهرة .

(٤٦)العقد الفريد : أبوعمر أحمدبن محمدبن عبدربه الأندلسى . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠ . القاهرة .

(٤٧)العقل المؤمن أو الدين عن طريق الفكر : عبدالمنعم خلاف . دارالكتاب العربى القاهرة (ط ١) ١٩٥١ .

(٤٨) العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق : د. محمد البهى . مطبعة الأزهر. القاهرة ١٩٧٦.

(٤٩) العمدة (فى محاسن الشعر وادابه ونقده) : أبوعلى الحسن بن رشيق القيروانى الأزدى : دارالجيل . بيروت (د . ت) .

(٥٠) الفقه الإسلامى : د. محمد سلام مدكور. مطبعة الفجالة .. القاهرة (ط ٢) ١٩٥٥ .

(٥١) فقه السيرة : محمد الغزالى . دارالكتاب العربى . القاهرة (ط . ١) ١٩٥٣.

(٥٢) فى ظلال القرآن : سيد قطب . (ط . ٩) دارالشروق ١٩٨٠ .

(٥٣) القاموس المحيط : الفيروز ابادى : مجدالدين محمدبن يعقوب (مطبعة الحلبى بالقاهرة).

(٥٤) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم : موريس موكاى (دارالمعارف ١٩٧٩).

(٥٥) قصة الحضارة : ول ديورانت : ترجمة د . زكى نجيب محمود (ط ٢) ١٩٥٦ لجنة التأليف والترجمة والنشر / القاهرة .

(٥٦) القضايا الكبرى فى الإسلام : عبدالمتعال الصعيدى (مكتبة الآداب بالجماميز بالقاهرة) .

(٥٧) الكتاب المقدس (كتب العهد القديم والعهد الجديد) .

(٥٨) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل : أبوالقاسم جارالله محمودبن عمر الزمخشرى الخوارزمى (دارالفكر ـ بيروت) .

(٥٩) كشف الكربة بوصف حال أهل الغربة (غربة الإسلام) : الحافظ بن رجب الحنبلى . دارالكتاب العربى . القاهرة (ط ١) ١٩٥٤ .

(٦٠) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ : أبوالحسن على الحسنى الندوى ـ الطبعة الثانية ١٩٥١ (دارالكتاب العربى / القاهرة) .

(٦١) مبادىء تاريخ القانون : د . صوفى أبوطالب ١٩٥٨ / مكتبة النهضة المصرية / القاهرة .

(٦٢) مبادىء علم النفس العام : د . يوسف مراد : (ط ٢) دارالمعارف ١٩٥٤ .

(٦٣) المجتمع الإسلامى : د . أحمد شلبى (ط ٢) ١٩٦٣ مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .

(٦٤) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : محمد الخضرى : الجزء الأول / الطبعة السادسة ١٣٧٠ المكتبة التجارية / القاهرة .

(٦٥) محاضرات فى النصرانية : محمد أبوزهرة (ط ٢) مطبعة مخيمر القاهرة ١٩٤٩ .

(٦٦)المرأة العربية فى الشعر الجاهلى : د. أحمد الحوفى . مكتبة نهضة مصر ومطبعتها .

(٦٧)مركز المرأة فى قانون حورابى وفى القانون الموسوى : جان أمل ريك.تعريب سليم العقاد . المطبعة العصرية بمصر ١٩٢٦ .

(٦٨)مصادر الالتزام : د. عبدالمنعم فرج الصدة ١٩٦٠ (الحلبى / القاهرة) .

(٦٩)المشكلة الأخلاقية والفلاسفة : أندريه كرسون . ترجمة عبدالحليم محمود وأبوبكر زكرى .. دارإحياء الكتب العربية ـــ القاهرة .

(٧٠)مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير للفخر الرازى : محمد الرازى فخرالدين ـــ المطبعة الحسينية المصرية ـــ القاهرة .

(٧١)مقدمة ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمدبن خلدون . دارالشعب .. القاهرة .

(٧٢)الملكية فى الشريعة الإسلامية مع المقارنة بالشرائع الوضعية : على الخفيف . معهد الدراسات العربية . القاهرة (ط ١-١٩٦٦) .

(٧٣)منهج التربية الإسلامية : محمد قطب . دارالشروق . القاهرة (ط ٢) .

(٧٤)موجز أصول الالتزامات : سليمان مرقص : مطبعة لجنة البيان العربى / القاهرة ١٩٦٢.

(٧٥) الموطأ : الإمام مالك بن أنس،تصحيح وتعليق محمد فؤاد عبدالباقى (دار الشعب) .

(٧٦)نحن والحضارة الغربية : أبوالأعلى المودودى ـــ بيروت ١٩٥٩ .

(٧٧)نظرية الإباحة عند الأصوليين والفقهاء : د. محمد سلام مدكور. (دارالنهضة العربية ١٩٦٥) .

(٧٨)نهاية الأرب فى فنون الأدب : شهاب الدين أحمدبن عبدالوهاب النويرى (مصورة عن طبعة دارالكتب ١٩٥٤) القاهرة .

(٧٩)نهج البلاغة (وهو ما اختاره الشريف الرضى من كلام أمير المؤمنين على بنأبى طالب . . شرح الإمام محمد عبده . دارالشعب القاهرة (د.ت) .

(٨٠)اليهودية : د. أحمد شلبى . مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨ (ط ٥) .

الفهـــرس

بالتصريح المباشر ٣ــ التحريم المؤقت ٤ــ التحرم النهائى الحاسم ــ موازنة بين منهج الإسلام فى تحريم الخمر ومنهج القانون الأمريكى فى الثلاثينيات .

الخاصة الثانية : الوسطية العادلة :

قيم اليهودية من التوراة والتلمود والكتابات الفقهية ــ خصائص هذه القيم (التنوع ــ التفصيل ــ القوة والصرامة) انتهاء اليهودية إلى الإغراق فى المادية المترفة . خصائص القيم المسيحية : الإغراق فى الروحانية والرهبانية والمسالمة . موقف الإسلام من هذه القيم ــ إقرار مالم ينسخه الإسلام ولم يتعارض معه . الإنسان فى الإسلام : عقل وروح وجسد . الوسطية الإسلامية تعنى التوفيق بين حاجات هذه العناصر . تكريم الإنسان بالعقل ودعوته إلى التفكير والنظر، اعتراف الإسلام بحاجات الجسد . تعطيل إشباع الغرائز بالطريق المشروع يصادم الفطرة الإنسانية ــ الإسلام وحاجة الفم والبطن ــ الإسلام وحاجة الجنس . الروح من أمر ربى . الإيمان بالله هو الإشباع الحقيقى للروح . الإيمان بالله عبودية وعزة . الطمأنينة النفسية حصيلة روحية ومنطقية للإيمان . الشجاعة وطاقة الصمود ثمرة من ثمرات الإيمان بالله . الإيمان العملى هو معيار التفضيل بين الأفراد و بين الأمم ــ الوسطية العادلة تعنى التوفيق بين مطالب العقل والجسد والروح . نهى القرآن عن الإسراف والغلو وأمره بالاعتدال والوسطية الأخلاقية ــ سلوك النبى فى خصوصياته لا يتعارض مع القاعدة العامة فى الوسطية ، الإلزام بطاعة الرسول فى غير خصوصياته . الوسطية تقتضى التوفيق بين « المثالى » و « الواقعى » . الوسطية تعنى التوفيق لا التلفيق .

الخاصة الثالثة : الهيمنة التشريعية

أخلاقية قواعد الشريعة الإسلامية . الأعمال بالنيات قاعدة عامة فى الحكم على الأفعال. هدف العبادات غرس القيم الأخلاقية وخلق المجتمع الصالح ــ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.. الأمر بإقامة الصلاة لا أدائها . الربط بين الصلاة والصبر وقيمة هذا الربط . الصلاة والطمأنينة النفسية ــ الصوم ومافيه من قيم نفسية وأخلاقية . أخلاقية القواعد القانونية فى الإسلام و بناؤها على أساس إنسانى: لا فصل فى الإسلام بين القاعدة القانونية والقاعدة الأخلاقية . نظرية التعسف فى استعمال الحق وعلاقتها بالقاعدة السابقة . استعمال الحق فى الإسلام مقيد بالعدل والإحسان ومقولة (لا ضرر ولا ضرار) ــ قواعد إسلامية فى إزالة الضرر ودفعه وصورة المصلحة المشروعة . من تطبيقات نظرية التعسف (الجار.. المدين) ــ نظرية الضرورة وعلاقتها بالقواعد الأخلاقية ــ رفع الحرج عن المكلفين وسببه ــ الضرورة والاضطرار ــ أنواع الإكراه وأثره فى إباحة الأفعال ــ شروط الضرورة ــ نظرية الضرورة هى أصل نظرية الظروف الطارئة فى القانون الوضعى ــ الشبه الشديد بين شروط حالة الضرورة وحالة الظروف الطارئة . المنبع

رقم الايداع ٣٩١٠/٨٤

المطبعة الفنية القاهرة ت ٩١١٨٦٢